

إعداد الدكتور

حمود بن إبراهيم بن عبد الله العصيلي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في قسم اللغة العربية وآدابها

بكلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية في جامعة القصيم.

المملكة العربية السعودية


بسم الله الرحمن الرحيم

البلاغة القرآنية بين الإعجاز ودلائل الإيمان

حمود بن إبراهيم بن عبد الله العصيلي

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، جامعة القصيم، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني:Hasaiely@qu.edu.sa

الملخص:

يستعرض هذا البحث أهم المنجزات البلاغية التي كتبها البلاغيون في القرن الرابع والخامس، المختصة بدراسة إعجاز القرآن، ويقف على الهدف الذي قادهم إلى تأليف رسائلهم وكتبهم، ويبين وقوف كتبهم في بيان إعجاز القرآن على الوجه المتحدى به، وهو الإعجاز البياني، وما قاموا به من بيان الأوجه البلاغية التي تثبت هذا التحدي والإعجاز، ويتساءل الباحث حول مدى توظيف دلائل الإيمان ووحدانية الله ﷻ وربوبيته، وبيان كمال علمه وقدرته وإحاطته في المنجز التراثي؛ ليصل إلى نتيجة مفادها: غياب هذا الأمر لدى دارسي الإعجاز القرآني البلاغي؛ لانشغالهم ببيان وجه التحدي الذي جعلوه هدفًا لهم، وكذلك انشغالهم بالرد على الملاحدة والطاعنين بالقرآن؛ إذ إن الذي يناسب هؤلاء الملاحدة هو بيان وجه التحدي، فبحثهم متسق مع دواعي التأليف لديهم، وما يثيره المشككون والطاعنون، ثم يشرع الباحث في محاولة الإجابة عن تساؤله في الإعجاز البلاغي، ومدى ارتباط أوجه البلاغة بدلائل الإيمان، كما هو الحال في الإعجاز العلمي المعاصر، ليصل - من خلال التطبيق على الآيات وتحليلها بلاغيًا- إلى نتيجة مفادها: إمكانية بيان دلائل الإيمان بالله ﷻ وكمال علمه وقدرته وإحاطته من خلال الوجه البلاغي، كما هو الحال في الدراسات المعاصرة التي تربط بين دلائل الإيمان والإعجاز العلمي، وأن دراسة بلاغة النظم القرآني ومفرداته قادرة على استيعاب جميع أنواع الإعجاز

العلمي والغيبي والنفسي والتاريخي وغيرها، وأن الوجه البلاغي وثيق الـ صلة بهذه الوجوه الإعجازية، وأن دلالة الإيمان ظاهرة في الوجه البلاغي، كما هي ظاهرة في الوجه الإعجاز العلمي، وأن الله ﷻ محيط بالكلام كله، كما هو ﷻ محيط بالكون وأسراره كاملة، وأنه على كل شيء قدير.

الكلمات المفتاحة: التحدي، دلائل الإيمان، الإعجاز العلمي، إعجاز القرآن، البلاغة.

.

Quranic Rhetoric between Inimitability and Evidence of Faith

By: Hamoud Bin Ibrahim Bin Abdullah Al- Osaili
Department of Arabic Language and its Literature
College of Arabic Language and Social Studies
Qassim University- K.S.A

Abstract

This research demonstrates the most important achievements written by rhetoricians of the fourth and fifth centuries who were concerned with studying the inimitability of the Holy Qur'an. The research is keen on defining the main objective beyond writing their books and messages. In addition, the research traces the truth of confining the rhetoricians' books to clarifying the inimitability of the Holy Qur'an on the specified aspect of challenge which is the rhetorical inimitability of the Qur'an as well as the efforts of the rhetoricians to highlight the rhetorical aspects that prove this challenge and inimitability. The researcher wonders about the extent to which the evidence of faith, the Lordship and Oneness of Allah, stating the perfection of his knowledge, ability, and His knowledge of the heritage achievement. This would lead to the conclusion that the absence of this matter among students of the Qur'anic rhetorical inimitability because they were preoccupied with clarifying the aspect of challenge which they made as their goal as well as their preoccupation with responding to the atheists and those who challenge the Qur'an since what suits these atheists is to clearly state the aspect of challenge. Their research is consistent with the purposes of writing, and what skeptics and critics raise. Next, the researcher tries to answer the question about the rhetorical inimitability, and the extent to which aspects of rhetoric are linked to the evidence of faith, as is the case in contemporary scientific miracles. Then, by applying those procedures to the verses and analyzing them rhetorically, the researcher would reach the conclusion that it is possible to explain the evidence of belief in Almighty Allah and the perfection of His knowledge, power, and His comprehensiveness through the rhetorical aspect, as is the case in contemporary studies that link the evidence of faith and scientific miracles. Moreover, the study of the rhetoric of Qur'anic disciplines and its vocabulary can comprehend all types of scientific, metaphysical, psychological, historical, and other miracles. In addition, the rhetorical aspect is closely related to these inimitable aspects. Finally, the significance of faith is apparent in the rhetorical aspect just as it is apparent in the scientific miraculous aspect and that Almighty Allah encompasses all speech as He encompasses the universe and its secrets in full, and He Has power over all things.

Key words: challenge, evidence of faith, scientific miraculousness, inimitability of the Holy Qur'an, rhetoric

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيـد

منذ أن بدأ التأليف اللغوي في أواخر القرن الثاني الهجري، وضميرُ اللغويين يقِظٌ، يتعهّد النظرَ في كل شبهة تطرح ضد القرآن وتطال مفاصل الشرع الحكيم، ويرصد ما يرد في تلك الشبهات من مسائل لغوية تحاول الطعن في لغة القرآن وأسلوبه، فانبرى يبحث عن ردها، والدلالة على سلامتها من النقص، مع إثبات كمال الحجة في الرد على تلك الشبهات، والانتقال من رد الشبهة ودفع النقائص إلى إثبات الجمال والتفنن الذي أدى إلى بيان وجوه الإعجاز والتحدي.

لقد انبرى العلماء يحافظون على النشء المقبل على تعلّم العلوم، فيبينون لهم مكانة اللغة بين العلوم الأخرى، محاولين دحض التزهيد في لغة الأجداد وتراث الأمة، فجمعوا اللغة وسطروا المعاجم ومقاييس اللغة وضبطوا القواعد، وبينوا أوجه اللحن، وانبروا يصدون أي طاعن في القرآن ولغة العرب، ويزهد فيها أمام الثقافات الدخيلة، ويفندون شبهاته.

فجاء الدرس البلاغي منبثقًا من هذا الضمير اليقظ الذي شرع في الدفاع عن القرآن وقضاياه التي يواجهها أبناء ذلك الجيل، ومبينًا المشكل الذي يقدمه الطاعنون في تأويل آي القرآن، ومسفرًا عن دراسات تتصل بإثبات مصدرية القرآن، وأنه من عند الله ﷻ، وما الوجه الذي يثبت به التحدي بالإتيان بمثل القرآن أو مثل عشر سور منه، أو مثل سورة منه، أو سورة من مثله.

ومع بداية الدرس اللغوي والبحث فيه أواخر القرن الثاني ظل اللغويون يقدمون ملحوظات أثناء تعليقاتهم على الآيات والشعر تتصل بالرد على الملاحدة وأشباههم الطاعنين في القرآن، وما يورده الطاعنون من شبهات التناقض والفساد في النظم والاضطراب في الإعراب، وهي شبهٌ قامت على مكائد الصدور، وجهل بأساليب العربية، فجاءت مؤلفات اللغويين للذب عن القرآن كما هو الحال لدى أبي عبيدة (ت٢١٠هـ) في مصنفه مجاز القرآن، والجاحظ في البيان والتبيين

(٢٥٥هـ)، وابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) في تأويل مشكل القرآن والمبرد (ت٢٨٥هـ) في الكامل في اللغة والأدب، وغيرهم ممن تصدى لهذه الشبه، وأثبت الوجه العربي لتلك التنوعات في الأساليب، وبيان صحتها واتساقها مع نظام الجملة العربية في تعدد وجوهها، وكان جهدهم ينحسر في الدراسات التي تهتم بالمحافظة على لغة الأوائل وأساليب العربية، مع الحرص على صناعة المقاييس العربية الخالصة، وتعليم النشء كيفية استقصاء ألفاظ اللغة العربية، وكيفية المران على استخدامها، دون الحرص على الاتصال بآراء الأمم الأجنبية، ومحاولة توظيف الآراء الفلسفية في التفكير العربي.

ومع تطور التأليف اللغوي ونضج الدرس اللغوي بدأ الدرس اللغوي يتسع في المباحث اللغوية الخالصة، مسجلًا الانحياز عن مباحث البيان والبلاغة، وكأنهم يرون أن ميدان البلاغة لغيرهم.

أما المتكلمون (من الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم) فقد انبرى نشاطهم اللغوي يتصل أكثر بالدرس البلاغي، ويتطور مع الأيام حتى وصل الدرس البلاغي إلى الاستقلال في رسائل خاصة تتفرد بالبلاغة، ثم الكتب المستقلة بهذا الشأن، وهم مع عنايتهم بالمحافظة على اللغة وأساليبها إلا أنهم قبلوا ما عند غيرهم من قواعد البلاغة وطريقة التفكير، ودلائل الاستنباط، وفلسفة التفكير في ميزان يضبط الاعتدال بين المحافظة على الأسلوب العربية والاحتياط مما يرد من موجات ثقافية من الأمم الأجنبية، وتوظيف ما يخدم الدرس البلاغي، ويكشف أسراره وجمالياته، مع كونهم قد تفاوتوا في نقل ثقافة الأمم الأخرى من اليونان وغيرهم، فمستقل في الاستفادة ومستكثر.

إن العناية بتعليل إعجاز القرآن وتفسيره بلاغيًا، واختلاف المنطلقات الفكرية، والمذاهب العقدية في توجيه إعجاز القرآن، والمناظرات التي تقوم بين تلك المذاهب، واجتماع أهل هذه النحل على الرد على الطاعنين في جماليات القرآن أدى إلى ملء الساحة العلمية بدراسات مستقلة

تتبع أوجه إعجاز القرآن، وبيان وجه التحدي فيه، وتخصص في طرح قضية الإعجاز، حتى أصبح عنوانًا لعدد من الرسائل العلمية، مثل: النكت في إعجاز القرآن: للرماني (ت٣٨٦هـ)، وبيان إعجاز القرآن: للخطابي (ت٣٨٨هـ)، وإعجاز القرآن: للباقلاني(٤٠٣هـ)، وإعجاز القرآن: للقاضي عبد الجابر (٤١٥هـ) ضمن مصنفه الكبير: المغني في أبواب التوحيد والعدل، ودلائل الإعجاز: لعبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) ومن لحقه في عصور المتأخرين كذلك، حتى وجدنا الكتب تستقل في بيان مسائل بديع القرآن، كما فعل ابن أبي الإصبع، وكذلك مسائل المتشابه اللفظي، كما هو الحال لدى الخطيب الإسكافي (٤٢٠هـ) في: درة التنزيل وغرة التأويل، وكذلك الكرماني (٥٠٥هـ) في البرهان في توجيه متشابه القرآن، والغرناطي (٧٠٨هـ) في: ملاك التأويل في توجيه المتشابه اللفظي، وما يختص بدراسة علم المناسبة في القرآن، من مثل: كتاب نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٨٨٥هـ)، وغيرها من الكتب التي أخذت قضية من قضايا البلاغة القرآنية، وركزت الدراسة عليها دون غيرها من القضايا البلاغية الأخرى.

إن قضية الإعجاز القرآني والدراسات المتصلة بها في بيان وجه التحدي لم تكن من اختصاص اللغويين فحسب، بل شارك فيها عدد من المختصين في الفقه وأصول الفقه، وأهل الحديث، وعلماء التفسير؛ إذ شغلهم البحث في قضية الإعجاز، فوجدوا أن الحديث عن نظرية الإعجاز من القضايا التي يجب أن يحرروها؛ لما لها من تقاطعات عقدية ومذهبية مع منطلقاتهم الفكرية التي يبنون عليها دراساتهم، وأن ثمة وجوهًا من التي ذكرها العلماء لا يمكن قبولها، ولا بد من مناقشتها، كما هو الحال مع فكرة الصرفة، وغيرها، وكذلك ربط الإعجاز والتحدي بغير الوجه البياني.

إن المتأمل للدرس البلاغي القرآني في أوج دراسته – خاصة في القرن الرابع والخامس- يجد أن الفكرة التي شغلت مؤلفاتهم هي تقرير وجه التحدي في الإعجاز القرآني، وهو الوجه البياني، وأنه هو المقبول الذي يفسر به جميع آيات القرآن، وهو موجود في كل سورة منه، دون غيره من

الوجوه المعجزة، مثل: الإعجاز العلمي، والإعجاز التاريخي، والإخبار عن الأمور المستقبلية، والتأثير النفسي، وغيرها مما جاء في كتابه ﷻ من الأمور التي تدل على وحدانية الله ﷻ وربانيته، ثم إثبات وجه النظم البلاغي للإعجاز البياني، وأنه هو المتحدى به، دون أن يكون التحدي في الألفاظ وحدها، أو المعاني وحدها، أو الحركات أو المطالع والمقاطع، أو الفواصل القرآنية، أو الاستعارة والتشبيه وحدها.

بيد أن النظر في دلالة الوجه البلاغي على وحدانية الله ﷻ وربانية لم تشغل البلاغيين في تقرير المسائل البلاغية، فهم يوردون دلالة وحدانية الله ﷻ وربانيته حين يتحدثون عن مصدرية القرآن، ويبسطون القول في الوجوه الأخرى من وجوه الإعجاز غير الوجه البلاغي، أما في تطبيقاتهم البلاغية على جماليات القرآن ونظمه فإنهم يقررون مسألة التحدي وبيان عجز المشركين عن الإتيان بمثله، وكونه على درجة واحدة من العلو والاتساق دون أن يكون فيه شيء من التفاوت، كما هو الحال في بلاغة البشر في شعرهم ونثرهم، سوى ما جاء عند بعضهم من الإشارات القليلة التي سأتحدث عنها في المباحث القادمة.

هذا ما جعل الباحث يلحُّ عليه السؤال الآتي: هل تقود البلاغة القرآنية ومسائلها إلى دلالة الإيمان بالله ﷻ ووحدانيته، وكمال قدرته، وإحاطته ﷻ بكل شيء؟ ومع كون هذا المعنى متقررًا عند أهل القبلة، فهل نستطيع أن نبحث عن هذه المعاني عن طريق النظم القرآني؟ دون أن يتفرد بهذه المعاني الإعجاز العلمي والإعجاز الغيبي وغيره من الإعجازات التي تتصل بالمضامين، وتنطلق منها في إثبات مصدرية القرآن ووحدانية الله ﷻ وربانيته.

إن هذا السؤال البحثي هو ما سيرافق الباحث في تطبيقات هذا البحث، وما سيقوده إلى نتائج مستقبلية تجيب عن هذا الارتباط- الإيجابي أو السلبي- بين الشكل البلاغي ودلالة الإيمان بوحدانية الله ﷻ وربانيته وكمال قدرته وإحاطته.

المبحث الأول

مفاهيم عنوان البحث وقضاياه

حين ننظر إلى مصطلح الإعجاز نجد أنه مصطلح حادث لم يرد في الكتاب ولا في السنة، فلم يدوّنه العلماء إلا حين دونوا هذا العلم وقضاياه وأسسوا مصطلحاته؛ إذ كان المصطلح الذي يؤدي دوره لدى الأوائل هو مصطلح (آية) كما في قوله الله ﷻ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٠٩] وكذلك يستعمل القرآن مصطلح (البينة) في مرادف الآية كما في قوله ﷻ حكاية عن صالح عليه السلام ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف:٧٣]

وكذلك مصطلح (البرهان)، كما في قوله ﷻ: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢] وأيضًا يؤدي دور مفهوم المعجزة لدى الأوائل التعبير بلفظ السلطان، كما في قوله ﷻ حكاية عن أنبيائه: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم ١١] وكذلك يرد التعبير عنها بلفظ (الحُجَّة) كما في قوله ﷻ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام:٨٣][1]، نعم لفظ العجز ورد في كتاب الله ﷻ، كما في قوله ﷻ: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت:٢٢] لكنه لم يطلق على المصطلح الذي تحدث عنه العلماء في مفهوم المعجزة.

وهنا ثمة مسائل في بيان مفاهيم البحث:

أولاً: تعريف المعجزة وشروطها.

ظهر مصطلح المعجزة مع ظهور أهل الجدل وأهل الكلام من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم، حين انبرى هؤلاء العلماء للرد على زنادقة الطاعنين في القرآن، وهو مع كون مصطلح (المعجزة) حلّ محل مصطلح الكتاب والسنة (الآية، والبرهان، والبينة) الدالة على صدق

---

(١) ينظر في الإشارة إلى هذه المعاني: مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، ص:١٣

الرسول ﷺ بأنه مرسل من ربه – كما ذكرنا سلفًا– إلا أن الله ﷻ قدّر لمصطلح المعجزة الشيوع والذيوع(١).

ومفهومها في اللغة يرد من العجز وهو الضعف، وعدم القدرة، وهو نقيض الحزم(٢)، وأما في الاصطلاح، فيحددون معالمها: بالأمر الخارق للعادة، السالم من المعارضة، الذي يُجْريه اللهُ ﷻ على أيدي الأنبياء والمرسلين؛ تأييدًا لدعوى نبوته. ويزيد بعضهم:(المقرون بالتحدي)(٣)، وأوصل بعض المتأخرين تقييدات شروط المعجزة إلى سبعة شروط، هي:

١- أن يكون من فعل الله ﷻ أو ما يقوم مقامه.

٢- أن يكون خارقًا للعادة إذ لا إعجاز دونه.

٣- أن يتعذر معارضته، فإن ذلك حقيقة الإعجاز.

٤- أن يكون ظاهرًا على يد مدعي النبوة ليعلم أنه تصديق له.

٥- أن يكون موافقًا للدعوى.

٦- ألا يكون ما ادعاه وأظهره مكذبًا له.

٧- ألا يكون متقدمًا على الدعوى، بل مقارنًا لها؛ لأن التصديق قبل الدعوى لا يعقل(٤).

وهذه الشروط للمعجزة لم تسلم من توجيه النقد إليها، ومناقشتها من علماء العقيدة والأصول والبلاغة، مما ينبئ أن هذا المصطلح الحادث واشتراطاته على آي القرآن ودلالات النبوة وبراهينه، ومصدرية القرآن وربانيته إنما هو اجتهاد علمي، وأن مثله مثل أي اجتهاد علمي

---

(١) الإعجاز العلمي إلى أين، مساعد الطيار، ص:٩.

(٢) لسان العرب، مادة: (عجز).

(٣) ينظر في تعريفات المعجزة اصطلاحًا: معجم التعريفات: الجرجاني، ص: ١٨٤، والإتقان في علوم القرآن: السيوطي، ص: ٧١٠.

(٤) ينظر: المواقف: الإيجي، ص: ٨٦٦.

آخر يمكن أن يناقش، وأن يعاد النظر إليه من منظورات جديدة ومختلفة[١]، ((ولو وازنت بين مصطلح القرآن والسنة (الآية) وهذا المصطلح الحادث (المعجزة) لبان لك أن مصطلح القرآن والسنة لا يحتاج إلى تلك الشروط التي عرّف بها هؤلاء المعجزة؛ لأن الآية هي العلامة الدالة على صدق النبي ﷺ، وهي مستلزمة لذلك إذا نطق بها، وعلى هذا جميع آيات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام))[٢].

ومن النقد الذي أخذه العلماء على مفردات تعريف المعجزة وشروطها:

- أن اقتران مفهوم الإعجاز بالتحدي أمر يُخرج بعض المعجزات التي أتى بها الأنبياء ولم يطلب فيها التحدي، وهذا ما جعل بعضهم يضطر إلى التفريق بين المعجزة المقرونة بالتحدي فيسميها معجزة، والأخرى غير المقرونة بالتحدي فيسميها دلائل النبوة[٣]، وهذا تفريق لا يسلّم له؛ لأن كثيرًا من معجزات الأنبياء وآياتهم التي جاؤوا فيها لم يقرن بها التحدي، بل نجد أن التحدي بالإتيان بمثلها يكاد يكون في القرآن وبعض الآيات القليلة للأنبياء، كما أن بعض المعجزات لم يطلبها الكفار لمقاومة التحدي، مثل: آية انشقاق القمر، ولم يتحدّهم بها رسول الله ﷺ ، بل طلبها المشركون آية للتصديق به، كما أن عددًا من الآيات والمعجزات حدثت بين يدي المؤمنين؛ تصديقًا، وزيادة في الإيمان.
- ربط المعجزة بكونها مقارنة لدعوى للنبوة، وأن هذا الأمر الخارق لا يحدث للنبي إلا بعد

(١) ينظر: وصف القرآن بالمعجزة في التراث العربي، إبراهيم التركي، ص:١٠.

(٢) الإعجاز العلمي إلى أين، ص:٩

(٣) كما نجد ذلك عند مصطفى مسلم حين بحث في شروط المعجزة وأثبت هذا الشرط وجعله شرطًا أساسًا في المعجزة، ثم أشار إلى تفريق العلماء بين المعجزة المقترنة بالتحدي، والمعجزة التي لا تقترن بالتحدي، وسمى الأخيرة (دلائل النبوة) ونقل عن ابن حجر في فتح الباري هذا الأمر حين تحدث في باب علامات النبوة، ينظر: مباحث في إعجاز القرآن، ص: ١٧.

نبوته، فقد ناقش ابن تيمية هذا القيد – كما في كتاب النبوات[١] – حيث إن هناك معجزات كانت قبل دعوى النبوة، وهناك معجزات حصلت بعد وفاة النبي ﷺ

– وكذلك مما أخذ على الشروط من إشكال كون المعجزة خارقة للعادة، وهذا الشرط أوقع فريقين في خلل؛ لكونهم لم يفرقوا بين خوارق العادات، إذ جعلوها من جنس واحد، ففريق منع وقوع خرق العادات لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فأنكروا الكرامات والسحر، واختلف على فريق آخر هذا الشرط، فجعلوا السحر من جنس ما يخرق من العادات للأنبياء، وذهبوا أن المعوّل عليه في التفريق بين معجزة النبي والسحر لا يكون إلا بالتحدي أو بدعواه أنه نبي من عند الله ﷻ، والحق أن خرق العادة التي تكون من الأنبياء لا يستطيعه أحد من الخلق مطلقًا؛ لأنه من عند الله ﷻ تأييدًا لنبيه وتصديقًا له، ولو استطاعه غيرهم لاختلط على الناس الأمر، ولا أدل على ذلك من سحرة فرعون لما رأوا آية موسى عليه السلام علموا أنها من عند الله ﷻ حين رأوها، وعرفوا أنها ليست من جنس أفعالهم وسحرهم[٢].

لذا مع إيماننا بوجود الأمر الخارق على غير أيدي الأنبياء فإننا ندرك إدراكًا تامًا أن ثمة فرقًا كبيرًا بين تلك الخوارق للعادات، فخوارق الأنبياء للعادات أمر كلي مطلق بعد إذن الله ﷻ لهم،

(١) ينظر: ص: ٢٢٩، حيث بيّن أن بطلان هذا الربط في معرض رده على الأشاعرة، وقال: ((فالدليل والبرهان إن استدل به كان دليلًا، وإن لم يستدل به لم يكن دليلًا، وإن اقترنت به الدعوى كان دليلًا، وإن لم تقترن به الدعوى لم يكن دليلًا عندهم، ولهذا لم يجعلوا دلالة المعجزة دلالة عقلية، بل دلالة وضعية)). وانتقد ابن تيمية كذلك الأمر الخارق للعادة وأنه ليس شرطًا للآية، فثمة آيات على صدق النبي ﷺ ليس فيها أمور خارقة للعادة، ونقل إنه لا إجماع على أنه لا دليل على صدقهم إلا في المعجزات، بل كثير من الطوائف يقولون: إن صدقهم بغير المعجزات (النبوات:٢٣٨) كذلك ناقش ابن تيمية مسألة شرط: السالم من المعارضة، وأن هذا الشرط ليس دليلًا على المعجزة، واحتجّ بأن مسيلمة الكذاب والأسود العنسي عندما ادعيا النبوة لم يعارضهم أحد. (النبوات: ٧٩٥)

(٢) ينظر: الإعجاز العلمي إلى أين، ص:٨

أما خوارق العادات لغيرهم فهي نسبية والناس فيها يتفاصلون، فبعضهم أقوى من بعض، ويمكن لمثلهم من البشر ممن أوتي تلك القدرة أن يعارضها ويأتي بمثلها.

على أنه مما يجب التنبه له أن اختيار مصطلح الآية على المعجزة لا يضعف ما في القرآن من البراهين والدعوة إلى التحدي، وعجز البشرية أن يأتوا بمثله.

ثانيًا: ما سبب نشأة السؤال البحثي:

هل تقودنا دراسة البلاغة القرآنية ودراسة نظمها وتراكيبها وأشكالها اللغوية إلى التدليل على وحدانية الله ﷻ وربانية النص القرآني، وكمال قدرته ﷻ وكمال علمه وإحاطته؟

إن الذي قادني إلى هذا السؤال، وشغف البحث عن الإجابة عنه هو ما رأيتُ في بعض الآيات القرآنية التي تحمل الدلالة الإيمانية مع إمكانية الوصول إلى ذلك المعنى الإيماني من خلال التركيب البلاغي، وكذلك ما نصت عليه الآية الكريمة في سورة الزمر، وهي قوله ﷻ: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣] فحين نمعن النظر في هذه الآية نجد أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين مصدرية القرآن وربانيته وما في إنزاله من مقاصد التأثر من الرهبةً والرغبة والهداية من جهة، ومصدرية التأثر وبوابته وهو كتاب الله ﷻ الذي نزل بأحسن الحديث، وأكمل المتشابه، وأعظم المثاني من جهة أخرى، وهذه صفات تحمل في طياته الوجه التركيبي البلاغي، وهذا ما يُقرر لدي هذه المسألة الملحة في البحث في تطبيقات هذا الوجه البلاغي وانبثاقه من الآيات الدالة على الإيمان بالله ﷻ وكمال أسمائه وصفاته، وتوحيده في الربوبية والألوهية.

ولو تتبعنا معنى هذه الآية لدى المفسرين لوجدناهم أفاضوا القول في بيان المقصود من النعوت التي نُعت فيها القرآن مما يعود على الجانب اللغوي والبلاغي وتراكيب نظمه، فمن ذلك:

- افتتحت الآية بالمسند إليه ومجيء الخبر الفعلي بعدها: ﴿اللهُ نَزَّلَ﴾ وهذا مما يزيد الجملة

تخصيصًا وتأكيدًا- كما يقرر ذلك البلاغيون- حيث إن تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في سياق الإيجاب يأتي لإفادة تقوية الحكم مع قصر المسند على المسند إليه[١].

- ثم أضفى الله ﷻ على المنزَّل صفةَ (الحُسن) وأكسبه العلو في المكانة حين جاء على صيغة التفضيل: ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ وهو أعظم الذكر ولولا أنه ﷻ هو الذي نزله لما كان الأحسن[٢]، ومفاد الحسن هنا يشمل الحسن اللفظي والمعنوي، فاللفظي يشمل الحسن في الفصاحة والجزالة، ويشمل الحسن في النظم وجمال الأسلوب؛ إذ ليس من جنس الشعر ولا من جنس الخطب، ولا من جنس الرسائل، بل هو نوع يخالف الكل مع كل ذي طبع سليم يستطيبه، وأما المعنوي فيشمل أحسن الحديث لأجل المعنى، في كونه منزه عن التناقض، وكذلك اشتماله على الغيوب الكثيرة في الماضي والمستقبل، وكثرة العلوم المتنوعة، المضمنة فيه[٣].

- ثم وصف الكتاب بقوله ﷻ:﴿مُتَشَابِهًا﴾ ((أي: في البلاغة المعجزة؛ والموعظة الحسنة؛ لا تفاوت فيه أصلا في لفظ ولا معنى؛ مع كونه نزل مفرقًا في نيف وعشرين سنة، وأما كلام الناس فلا بد فيه من التفاوت؛ وإن طال الزمان في التهذيب؛ سواء اتحد زمانه أو لا؛ والاختلاف في المختلف في الزمان أكثر؛ ولم يقل: (مُشتَبِهًا)؛ لئلا يظن أنه كله غير واضح الدلالة؛ وذلك لا يمدح به))[٤]. فالتشابه معناه – كما يقول ابن عباس- يشبه بعضه بعضًا[٥]، فهو متشابهة أجزاؤه، متماثلة في

(١) ينظر: دلائل الإعجاز، ص: ١٠٦.

(٢) ينظر: تفسير الرازي، ٢٦/ ٢٦٨.

(٣) ينظر: المرجع السابق، ٢٦/ ٢٦٨.

(٤) نظم الدرر، ١٦/ ٤٨٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ١٢/ ١٢٣.

فصاحة ألفاظها، وشرف معانيها، فهي متكافئة في الشرف والحسن(١)، وبيّن الرازي أن هذا التشابه يحصل في أمور: أحدها: أن الكاتب البليغ إذا كتب كتابًا طويلًا، فإنه يكون بعض كلماته فصيحًا، ويكون البعض غير فصيح، والقرآن يخالف ذلك، فإنه فصيح كامل الفصاحة بجميع أجزائه. وثانيها: أن الفصيح إذا كتب كتابًا في واقعة بألفاظ فصيحة، فلو كتب كتابًا آخر في غير تلك الواقعة كان الغالب أن كلامه في الكتاب الثاني غير كلامه في الكتاب الأول، والله ﷻ حكى قصة موسى ﵇ في مواضع كثيرة من القرآن، وكلها متساوية متشابهة في الفصاحة، وثالثها: أن كل ما فيه من الآيات والبيانات فإنه يقوي بعضها بعضًا، ويؤكد بعضها بعضًا، ورابعها: أن هذه الأنواع الكثيرة من العلوم التي عددناها متشابهة متشاركة في أن المقصود منها بأسرها الدعوة إلى الدين، وتقرير عظمة الله ﷻ، ولذلك فإنك لا ترى قصة من القصص إلا ويكون محصلها المقصود الذي ذكرناه، فهذا هو المراد من كونه متشابها(٢).

فمعانيه متشابهة في صحتها وأحكامها، وألفاظه متماثلة في الشرف والفصاحة والإصابة للأغراض من المعاني بحيث تبلغ ألفاظه ومعانيه أقصى ما تحتمله أشرف لغة للبشر وهي اللغة العربية مفردات ونظمًا، وبذلك كان معجزًا لكل بليغ على أن يأتي بمثله، وفي هذا إشارة إلى أن جميع آيات القرآن بالغٌ الطرفَ الأعلى من البلاغة وأنها متساوية في ذلك بحسب ما يقتضيه حال كل آية منها، وأما تفاوتها في كثرة الخصوصيات وقلتها فذلك تابع لاختلاف المقامات ومقتضيات الأحوال، فإن بلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال، والطرف الأعلى من البلاغة هو مطابقة الكلام لجميع ما يقتضيه الحال، فآيات القرآن متماثلة متشابهة في الحسن لدى أهل الذوق من البلغاء بالسليقة أو بالعلم وهو في هذا مخالف لغيره من الكلام البليغ فإن ذلك لا يخلو عن

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٣/ ٣٨٦.

(٢) ينظر: تفسير الرازي، ٢٦/ ٢٧١.

تفاوت ربما بلغ بعضه مبلغ أن لا يشبه بقيته[١].

- ثم وصفه بوصف بليغ وهو ﴿مَثَانِيَ﴾ وجاء به على صفة الجمع وهو كتاب واحد؛ لِما كان مفصلًا إلى سور؛ وآيات؛ وجمل، ومعنى مثاني: من التثنية؛ بمعنى التكرير؛ أي تثنى فيه القصص؛ والمواعظ؛ والأحكام؛ والحكم؛ مختلفة البيان في وجوه من الحكم؛ متفاوتة الطرق في وضوح الدلالات؛ من غير اختلاف في أصل المعنى[٢] **ويحمله بعض المفسرين كذلك التثنية، فأكثر الأشياء المذكورة وقعت زوجين زوجين، الظلمة والضوء، واللوح والقلم، والملائكة والشياطين، والعرش والكرسي، والوعد والوعيد، والرجاء والخوف، والمقصود منه بيان أن كل ما سوى الحق زوج، ويدل على أن كل شيء مبتلى بضده ونقيضه، وأن الفرد الأحد الحق هو الله** سبحانه وتعالى[٣].

وفيه من الإعجاز في التثنية ما يفارق غيره من كلام بلاغة البشر؛ إذ تتضمن هذه الصفة امتنانًا من الله سبحانه وتعالى على الأمة بأن أغراض كتابها مكررة فيه لتكون مقاصده أرسخ في نفوسها، وليسمعها من فاته سماع أمثالها من قبل، ويتضمن أيضًا تنبيهًا على ناحية من نواحي إعجازه، وهي عدم الملل من سماعه، وأنه كلما تكرر غرض من أغراضه زاده تكرره قبولا وحلاوة في نفوس السامعين[٤]؛ **لذا عدّ القاضي عياض في كتاب الشفاء من وجوه إعجاز القرآن: أن قارئه لا يمله، وسامعه لا يمجّه[٥]، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة، لا يزال غضا طريًا، وغيره من الكلام ولو بلغ من الحسن والبلاغة مبلغًا عظيمًا يملُّ مع الترديد، ويذبل إذا أعيد.**

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ٢٣/ ٣٨٦.

(٢) نظم الدرر، ١٦/ ٤٨٨.

(٣) ينظر: تفسير الرازي، ٢٦/ ٢٧١، ٢٧٢، والتحرير والتنوير، ٢٣/ ٣٨٦.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ٢٣/ ٣٨٧.

(٥) ينظر: الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، ١/ ٢٧٦.

وبعد هذا البيان القرآني لأوصاف القرآن البيانية، التي اشتملت على ما في القرآن من إعجاز نظم القرآن وعلو شأنه أتى بصفة تعود إلى نتيجة مثمرة هي من أعلى مقاصد تنزيل أحسن الحديث وما فيه من تشابه ومثاني، وهي حصول المقصود من التلذذ والاستطعام بالقرآن والرِّيّ من زيادة في الإيمان وقرب من الله ﷻ بالخوف منه ﷻ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ فالأوصاف السابقة من الحسن، والتشابه، والمثاني، تجعل القرآن يملأ قلب المؤمن جلالة، وروعة حين سماع القرآن، مما تجعل قلب المؤمن يمتلئ خشية، وجلده يقشعر؛ من آثار قوة تأثير البيان القرآني في النفوس، وكذلك تجعل هذه الأوصافُ القرآنيةُ الإنسانَ يلين جلدُه وقلبه، لما في القرآن من الرغبة، والطمع فيما عنده ﷻ: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾، قال عياض: أي الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعه(١)، وبهذا ينتفع المؤمن بكلام ربه ﷻ: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فيحصل على الهداية، وهي أعلى المطالب وأنبلها، وأشرفها، توفيقًا من رب العالمين، وامتنانًا منه حين انتفع بالقرآن، وعمل بما فيه.

إننا أمام آية عظيمة – والقرآن كله عظيم– في تقرير مدارج الوصول إلى أسمى غايات القرآن وهو الخشية من الله ﷻ والرغبة فيما عنده، وبلوغ شرف الهداية والعمل به، بعد أن علم المؤمن علم يقين بأن هذا الكتاب مصدره من الله ﷻ ورأى جماليات حسن حديثه وبلاغته، وتشابه بعض آياته مع بعض في اكتمال وانسجام دون تفاوت واختلاف، مع تكرار للألفاظ والمعاني في تفنن يبلغ مبلغ غاية الجمال والحسن.

وبهذا يتبين القصد من السؤال المطروح في هذا البحث ومكمن الإجابة عنه في أن إنزال القرآن وبيان وجهه البياني والإعجازي ليس حصرًا على التحدي، بل إن هذه الآية دلّت دلالة واضحة في ترتيب ألفاظها واكتمال أوصاف القرآن فيها، وما حملته معاني الأوصاف من اختصاص بالأوجه

---

(١) ينظر: الشفاء، ١/ ٢٧٤.

البيانية والتراكيب النظمية، وما يصبو إليه القرآن من مقاصد تتصل بالدلالة على الإيمان من خلال النظم كما هو الحال في الدلالة على الإعجاز والتحدي في سياق تحد الكافرين والمعاندين.

إن هذا هو الوجه الآخر من مقاصد القرآن البياني، فهو وجه مغاير لحمل علماء البلاغة القرآنية الآيات على أن المستهدف من المعاندين أو الطاعنين في القرآن الذي خصص له العلماء مسائل الإعجاز القرآني في دراساتهم، وحصروها على إثبات تحدي القرآن بأن يأتوا مثله؛ إذ جل نقاشاتهم – كما سنراها في بسط حديثهم- حيال إثبات بيان القرآن وإعجازه، وأن التحدي للمعاندين بأن يأتوا بمثل هذا القرآن في بيانه واتساقه وائتلافه.

وبقي أن نتتبع فرضية الإجابة عن هذا السؤال من خلال دراسة بعض المسائل البلاغية، وما مدى إمكانية الاتساق بين وجود المسائل البلاغية وإظهار وجوهها البيانية ودلالتها على الإيمان بالله ﷻ ووحدانيته وربوبيته، وكمال علمه وإحاطته وقدرته، وسيكون لها مبحث التطبيق، وهو المبحث الأخير.

المبحث الثاني

القضايا التي ناقشها مؤلفو الإعجاز البلاغي

حين نستظهر الرسائل والكتب التي أسست لبلاغة القرآن ودراسة وجوه الإعجاز لاسيما في القرنين الرابع والخامس الهجري[1] نجد أن ثمة قضايا مشتركة تعالجها تلك الكتب مع تمايز بعضها عن بعض في مفردات خاصة بكل مؤلف؛ وفق رؤيته الفكرية والمذهبية، ولعلي أقف على أهم القضايا الكبرى التي امتازت بها مؤلفاتهم، ومن خلال هذا العرض للقضايا يتبين مدى اهتمام علماء الإعجاز البلاغي في دلالة البلاغة والبيان على الإيمان بالله وربانيته، وإظهار كمال علمه وإحاطته وقدرته، فمن القضايا ما يلي:

١ - بيان الهدف من التأليف للكتب والرسائل التي اختصت بإعجاز القرآن في تلك الحقبة الزمنية:

حيث إن جل المؤلفين في إعجاز القرآن بيّن سبب تأليف كتابه تصريحًا أو تضمينًا، فهذا الخطابي يبين أن سبب تأليفه لأنه وجد الناس ذهبوا في تفسير الإعجاز كل مذهب من القول، ولم يصدروا عن ريّ، لأنه تعذر لديهم معرفة وجه الإعجاز في القرآن، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته، فهم وإن عرفوا أن القرآن معجز للخلق، وممتنع الإتيان بمثله حيث تحدى النبي ﷺ العرب قاطبة بأن يأتوا بمثله أو سورة مثله أو من مثله، وقد انقطعوا دونه، وعجزوا عنه، فإن الأمر الأهم هو كشف وجه الإعجاز والتحدي، وبيان كون القرآن معجزًا بنظمه، حيث إن أكثر الناس يرون إعجاز القرآن من جهة بلاغته، بيد أنهم في بيان كيفيته يعرض لهم الإشكال، ويصعب عليهم منه الانفصال، فعامة أهل هذا الرأي – كما يقول الخطابي- قد جروا في تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد، وضرب من غلبة الظن دون التحقيق له، وإحاطة العلم به، فهم إذا سئلوا عن

---

(١) شملت الدراسة في هذا المبحث أهم الدراسات التي كتبت في القرنين: الرابع والخامس، وهي: النكت في إعجاز القرآن للرماني، وبيان إعجاز القرآن للخطابي، وإعجاز القرآن للباقلاني، والرسالة الشافية في الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني.

البلاغة التي اختص بها القرآن قالوا: لا يمكننا تصويره، ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام، وكذلك يجدون لكلامه عذوبة في السمع وهشاشة في النفس لا توجد لغيره منه دون أن يذكروا لذلك علة، وهذا كله إشكال أحال إلى إبهام ؛ مما جعل الخطابي يشرع في تفسير الوجه البلاغي في تفسير الوجه الإعجازي للقرآن، ويبين لِمَ صار معجزًا(١).

أما الرماني فقد بيّن سبب التأليف؛ لأن أحد تلاميذه سأله بأن يذكر النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج، ثم شرع يبين أقسام البلاغة العشرة وكذلك وجوه الإعجاز لديه وهي سبعة، ومن خلال تطبيقاته البلاغية في أقسام البلاغة بين مقاصده من التأليف من خلال اتساق القرآن، وحسن تلاؤمه، وعدم التفاوت فيه، ليبين أن الإعجاز الذي تحدى الله ﷻ به البشر هو: الإتيان بمثل مقدار السورة من القرآن في اتساقها وعدم تفاوتها(٢).

وأما الباقلاني فقد رأى صدود بعض الناس عن الحق ونصرته، وخوض الملحدين في أصول الدين، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين، حتى صار الحديث في القرآن وحجته وبرهانه وإعجازه عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه، وكذلك ما جاء من تصنيفات المشركين للقرآن بين السحر والشعر، وقول بعضهم عن القرآن: إنه أساطير الأولين، وقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا!، وما حدث من جهّال بعض العرب في كونهم يعدلون القرآن ببعض الأشعار، ويوازنون القرآن بغيره من الكلام، وأن هذه الافتراءات ليست بوليدة ملحدة عصر المؤلف، فقد سبقوهم أئمتهم من المشركين في عهد النبوة، فكان هذا لزامًا على أهل اللغة أن يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته، والدلالة على مكانه، فهو أحق من التأليف في كثير من الإعراب وغامض النحو، فالحاجة إلى هذا أمس، والاشتغال به أوجب، فكان هذا الكتاب جواب لسائل طلب منه أن يذكر جملة

---

(١) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (رسالة بيان إعجاز القرآن)، ص: ٢٤-٢٧.

(٢) ينظر: المرجع السابق (النكت في إعجاز القرآن)، ص: ٧٨.

من القول الجامع، الذي يسقط الشبهات، وتزيل الشكوك التي تعرض للجهال، وتنتهي إلى ما يخطر لهم، ويعرض لأفهامهم من الطعن في وجه المعجزة، عن طريق عرض صنوف كلام العرب وصنوف صناعتهم، واختلاف طرائق بلاغاتهم، وبيان ما فيها من تفاوت، واختلاف؛ ليعرف بعدها عظيم محل القرآن، وارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه(١).

وأما عبد القاهر الجرجاني، فجعل سبب التأليف هو بيان عجز العرب حين تحدوا إلى معارضة القرآن، وإذعانهم وعلمهم أن الذي سمعوه فائت للقوى البشرية، ومتجاوز للذي يتسع له ذرع المخلوقين، وفيما يتصل بذلك مما له اختصاصٌ بعلم أحوال الشعراء والبلغاء ومراتبهم، وبعلم أدبهم جملة، فقد تحرى فيها الإيضاح والتبيين وحذا بالكلام حذوًا، هو بعلم العربية أشبه، وفي طريقهم أذهب، وإلى الأفهام جملة أقرب(٢).

وبهذا يستبين أن الهدف من هذه الكتب هو الاتساق بين الهدف وعنوان تلك الرسائل والكتب في كونها تتجه نحو المعاندين والملاحدة وبيان أوجه إعجاز القرآن وإثبات التحدي لهم، وعجزهم عن وصول منزلة القرآن وبلاغته، ولهذا لم يكن هدف الدلالة على الإيمان بالله ووحدانيته وربانيته حاضرًا في أصل تأليفاتهم؛ لأن المستهدف والداعي إلى صناعة هذا المنجز هم الملاحدة والمشككين في القرآن واتساقه، فكان مبلغ العلم أن يثبت عجزهم ويتحداهم أن يأتوا بمثله.

٢ – بيان امتداد هذا العلم للسابقين مع الاستدراك على من سبقهم:

وإضافة ما يختص به كل مؤلف، فمما يوظفه العلماء في بداية كتبهم أن يبينوا أن هذا المؤلف ما هو إلا امتداد لمنظومة البحث في إعجاز القرآن، وامتداد للهدف الأول الذي بنى عليه كل من

(١) ينظر: إعجاز القرآن، ص: ٩.

(٢) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (الرسالة الشافية)، ص:١١٧.

ألف في الإعجاز القرآن قبلهم وهو إثبات التحدي للقرآن مع محاولة تفسير وجه الإعجاز المتحدى به في القرآن؛ لذا نجد الخطابي يقول عمن سبقه: ((قد أكثر الناس في هذا الباب قديمًا وحديثًا، وذهبوا فيه كل مذهب من القول، وما وجدناهم بعدُ صدروا عن رِيّ، وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن))[١]، ومع معرفة أكثرهم بكون الوجه المقبول هو الوجه البلاغي إلا أن الكيفية عندهم توقعهم في الإشكال، وأن أكثر من قال بهذا قال به على وجه التقليد وغلبة الظن دون أن يقفوا على ماهية تمييز القرآن عن سائر أنواع البلاغات، فهم يقولون لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام[٢] ، وهذا مكمن التميز لدى الخطابي في بيان ما أشكل عليهم في الكيفية، والإضافة العملية.

وكذلك يقول الباقلاني عن الجاحظ ومدى إضافة كتابه على هذا الفن: ((وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتابًا، لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف اللبس في أكثر هذا المعنى))[٣].

٣- تعداد أوجه إعجاز القرآن وبيان الحكم عليها من حيث القبول والرد:

إن مما شغل الباحثين في مؤلفاتهم في إعجاز القرآن هو بيان أوجه إعجاز القرآن المتحدى بها، فالخطابي قسمها إلى مقبولة وغير مقبولة، فجعل القول بالصرفة – وهي صرف همم الناس وعقولهم أن يأتوا بمثل القرآن، ويعارضوه- من الأوجه غير المقبولة، كما أن من الأوجه غير المقبولة عنده ما زعمته بعض الطوائف من أن إعجاز القرآن فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان، ومع كون هذا الوجه نوع من أنواع إعجازه إلا إنه ليس بالأمر العام الموجود

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (بيان إعجاز القرآن)،ص: ٢١

(٢) المرجع السابق، ص: ٢٤.

(٣) إعجاز القرآن، ص: ٦.

في كل سورة من سور القرآن، والله ﷻ جعل صفة كل سورة من سور القرآن أن تكون معجزة بنفسها، لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثله، ثم أثبت الوجه المقبول وهو إعجازه من جهة بلاغته وبين مكمن البلاغة واحتواء القرآن على جميع أقسام الكلام وصروفها التي لا تجتمع في نص بشري واحد؛ ليثبت أن القرآن صار معجزًا: ((لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمنًا أصح المعاني))[(١)].

وأما الرماني فذكر أن ((وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة))[(٢)]. والرماني هنا قَبِلَ الوجوهَ كاملة دون أن يعمل على مناقشتها؛ لذا يأخذ عليه العلماء إثباته للصرفة.

وأما الباقلاني فقد جعل وجوه الإعجاز ثلاثة: الأول: ما يتضمنه القرآن من الإخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل إليه، الثاني: ما كان معلومًا من حال النبي ﷺ أنه كان أميًا لا يكتب، ولا يحسن أن يقرأ، ولم يكن معروفًا من حاله أنه يعرف شيئًا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم، وأنبائهم وسيرهم، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمات السير من حين خلق الله ﷻ آدم عليه السلام إلى حين مبعثه، وهذا من أوجه الإعجاز. الثالث: أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يُعلَم عجز الخلق عنه، وقد حمل الباقلاني في كتابه على التفصيل في الوجه الثالث، وكشف بيانه[(٣)].

وأما عبد القاهر الجرجاني فقد بيّن جملة من القول في بيان عجز العرب حين تحدوا إلى

(١) المرجع السابق، ص: ٢٧.

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (النكت في إعجاز القرآن)، ص: ٧٥.

(٣) إعجاز القرآن، ص: ٣٤، ٣٥.

معارضة القرآن، وما يتصل بذلك من علم أحوال الشعراء والبلغاء ومراتبهم، وما كان من العرب من كيدٍ للنبي ﷺ بكل ضروب الكيد، والصد، والمواجهة، لكنهم عجزوا في مواجهته بالبيان، ثم ما يدل على ثنائهم وتأثرهم بالقرآن من أحداث وبيانات تكشف وقوفهم عاجزين عن معارضته، ثم إن وجه الإعجاز هو الإعجاز البياني وما دلت عليه النصوص من طلب التحدي أن يأتوا بأي معنى شاؤوا من المعاني لكن بنظم يبلغ نظم القرآن في الشرف أو يقرب منه، مع رد عبد القاهر على وجه الصرفة التي أثبته بعض علماء الاعتزال(١).

٤- القضايا البلاغية التي ناقشوها في تطبيقاتهم على الآيات والشعر، وبيان وجه الإعجاز والتحدي.

فمن خلال مناقشتهم أوجه الإعجاز التي هي الأساس في مباحثهم عرضوا لقضايا تتصل بتفسير أوجه الإعجاز، وكل عالم من هؤلاء العلماء ارتأى فنونًا معينة وقضايا يجدها الأهم في تفسير رأيه وبيان مراده، وهي على النحو الآتي:

عند الخطابي:

- أن علامة عجز العرب عن معارضة القرآن الكريم امتدادُ محاربتهم ومنابذتهم للنبي ﷺ، وقطعهم للأرحام وإراقة الدماء وذهاب الأموال، ولوكان بوسعهم المعارضة وفي قدرتهم الإتيان بمثله لم يتكلفوا تلك الأمور الخطيرة، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الأفعال، مع ما عرفوا به من رزانة الأحلام ووفارة العقول والألباب، مع ما فيهم من قوة في الحجاج ونفنن في الشعر(٢).
- تحدث عن الأوجه البلاغية المقبول منها والمرفوض – كما ذكرت سلفًا- وأفاض القول بالوجه البلاغي- الذي عليه أكثر علماء أهل النظر- وبين أن الناس يعرفون هذا الوجه لكنهم غير مدركين كنهه وتفصيله وكيفيته، وما يستأنس به هؤلاء من وجود أحكام نقدية لبعض

(١) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (الرسالة الشافية) من ١١٥ وما بعدها.

(٢) ينظر: المرجع السابق (بيان إعجاز القرآن) ص:٢١، ٢٢.

الشعراء على بعضهم، وهذا الحكم مبني على عذوبة السمع وهشاشة في النفس لا توجد مثلها عند غيره، ومثّل بحكم الفرزدق على أبيات لذي الرمة، وكيف فرق بين أبياته وأبيات نحلها من شعر جرير في شعره، فقال الفرزدق عن الأبيات المنحولة: ليس هذا من بَحْرِك، مضيفها أشد لَحيين منك! فاستدركها الفرزدق بطبعه، ثم ناقش الخطابي هذه الفكرة مع غير التسبيب، وبين عدم اتساقها دائمًا، وصعوبة اطرادها في المعايير(١).

- بيّن أجناس الكلام الثلاثة، وأن مراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية، فمن تلك المراتب: البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرَّسْل، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة، والعبرة أن بلاغة القرآن حازت على حصة من كل قسم، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الخامة والعذوبة، وهما على انفراد نعوتهما كالمتضادين؛ لأن العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة تعالجان نوعًا من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبوّ كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن، ويسرها ﷻ بلطيف قدرته من أمره، ليكون آية بينة ودلالة له على صحة ما دعا إليه من أمر دينه، بيد أن البشر يتعذر عليهم الإتيان بها جميعًا؛ لأن علمهم لا يحيط بجميع أسماء العربية وألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، وهذا أحد مكامن الإعجاز في بلاغة القرآن(٢).

- بين أن الكلام يقوم على ثلاثة أشياء: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا

---

(١) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (بيان إعجاز القرآن)، ص: ٢٣-٢٦

(٢) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (بيان إعجاز القرآن)، ص: ٢٦-٢٧.

تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا، وأشد تلاؤمًا، وتشاكلًا من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أن أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها، وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير ﷻ، الذي حاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، وعلى هذا يقرر الخطابي أن القرآن إنما صار معجزًا؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصح المعاني، ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين هذه الثلاث وشتاتها في انتظام وتنسيق واحد أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله، أو مناقضته في شكله، فتردد المعاندون في أمره؛ إذ سموه مرة سحرًا، وتارة شعرًا، ومع ذلك لم يتمالكوا أنفسهم عن الاعتراف بجماله ونعته بأحسن النعوت[(١)]. وفي هذا يتبين كيف فتح الخطابي الباب أمام الدراسين في إشارته إلى هذا الانتظام الثلاثي، وما ألهم به من بعده في توظيف فكرة النظم في دراسات الإعجاز التي اكتملت نظريتها لدى عبد القاهر الجرجاني.

- بين أن عمود البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص والأشكل به، الذي إذا بدّل مكانه غيره جاء منه: إما على تبديل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة، ثم مثل على ذلك باستعمال القرآن الألفاظ المتقاربة، مثل: العلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح، وغيرها وما يختص به كل لفظ عن الآخر المقارب له، ثم شرع في شرح تلك

(١) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (بيان إعجاز القرآن)، ص: ٢٧-٢٨.

الألفاظ المتقاربة وبيان الفروقات اللغوية بينها، وذكر ما لهيبة ألفاظ القرآن من اختصاص وشرف جعل بعض العلماء يهاب التكلم فيها[١].

- تحدث عن المعاني التي تحملها الألفاظ، وأن الأمر في معاناتها أشد؛ لأنها نتائج العقول، وولائد الأفهام، وبنات الأفكار[٢].
- تحدث عن رسوم النظم وحاجته إلى الثقافة والحذق فيها أكثر؛ لأنها لجام الألفاظ، وزمام المعاني، وبه تنتظم أجزاء الكلام، ويلتم بعضه ببعض، فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان[٣]، ومع اهتمام الخطابي بالنظم، وفتحه أمام الدراسين لمن بعده إلا أنه لم يشرحه ويبينه بيانًا تفصيليًا، بل اكتفى بذكر أهميته وكون الإعجاز القرآني قائم عليه.
- تحدث عن الألفاظ وما ذكروه من قلة غريب القرآن، وبيّن أن الغرابة ليست شرطًا في حدود البلاغة؛ إذ يكثر وحشي الغريب في كلام الأوحاش من الناس، والأجلاف من جفاة العرب، فهو ليس معدودًا في النوع الأفضل، ثم بسط القول في بيان ما ذكره بعض المعاندين من وقوع ألفاظ ادعوا أنها لم تأت بأفصح وجوه البيان وأحسنها، أو فيها ما يحمل على سوء التأليف، وعدم النَّسَق، أو على غير العهد في اجتماع السور مرتبة حسب الوقائع وأخبار الأمم، وما في القرآن من تكرار، ثم ما جاء من شبهة في أن من المحتمل أن القرآن قد عورض لكنكم كتمتم خبر هؤلاء المعارضين، أو هم خافوا على أنفسهم، وما جاء كذلك من أخبار معارضة مسيلمة وغيره، وكونها جاء على مقدار السورة من القرآن.

وقد أتى على هذه الشبهات جميعها، فرد عليها وفنّدها، في استجماع للدليل النقلي

(١) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (بيان إعجاز القرآن) ، ص: ٢٩-٣٦.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص: ٣٦.

(٣) ينظر: المرجع السابق، ص: ٣٦.

والعقلي، وبيان لمفهوم المعارضة لدى العرب، في جواب متين يشفي غليل من يقرأ الشبهة، ويجد ردها ودحرها[١].

عند الرماني:

- تحدث الرماني عن طبقات البلاغة، فجعلها ثلاث طبقات: أعلى طبقة، وهي طبقة الإعجاز في بلاغة القرآن، والطبقة الوسطى والدنيا هي في كلام البلغاء من الناس وتفاوتهم بين هاتين الطبقتين، فأعلى الطبقات هي البلاغة للقرآن خاصة، وهي طبقة معجزة للعرب والعجم كإعجاز الشعر المفحم، فهذا معجز للمفحَم خاصة، كما أن ذلك معجز للكافة[٢].
- بيّن أن البلاغة ليست في إفهام المعنى؛ لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عييّ، وليست البلاغة كذلك بتحقيق اللفظ على المعنى؛ لأنه يتحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف، وإنما البلاغة: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ[٣]، وهذا النضج في التعريف للبلاغة جعل البلاغة تنحو عنده نحو البلاغة الخاصة، وتمنح اللفظ خاصية وهي مرتبة الحسن الأعلى في صورة الألفاظ، وكذلك اعتمادها على الإيصال الذي شرط فيه الوصول إلى القلب في بالغ من التأثير الذي يتجاوز الأسماع، وهنا نرى أن الرماني عقد الشرط على اللفظ الحسن دون أن يكون للمعنى أي شرط، فلم يقل بأصح المعاني كما رأينا ذلك لدى الخطابي، مما يدل على أن الاهتمام الأكبر لديه هو صورة اللفظ، ولا يعني عدم اكتراثه بالمعنى، لكن الذي يظهر تقديمه للفظ على المعنى.
- تحدث عن عشرة أقسام للبلاغة، وهي: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان، ثم شرح كل واحد منها،

(١) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (بيان إعجاز القرآن) ، ص: ٣٨-٧١.

(٢) ينظر: ثلاث رسائل في أعجاز القرآن: (النكت في أعجاز القرآن)، ص: ٧٥.

(٣) ينظر: المرجع السابق، ص: ٧٥-٧٦

وعرفه، وبين أقسامه، واستشهد عليه من الآيات، ومقارنـًا بينها وبين ما يرد عن العرب من أشعار وحكم ونثر مما هو أدنى منزلة، في عرض يثبت من خلالها الوجه البلاغي الذي اختص به القرآن في كونه معجزًا، والفضيلة التي جاءت في كل فن من هذه الفنون في القرآن، يقول: ((وظهور الإعجاز في الوجوه التي نبينها يكون باجتماع أمور يظهر بها للنفس أن الكلام من البلاغة في أعلى طبقة، وإن كان قد يلتبس فيما قل بما حسن جدًا لإيجازه، وحسن رونقه، وعذوبة لفظه، وصحة معناه كقول علي ﷺ :قيمة كل امرئ ما يحسن، فهذا كلام عجيب يُغني ظهور حسنه عن وصفه، فمثل هذه الشذرات لا يظهر حكم بها حكم، فإذا انتظم الكلام حتى يكون كأقصر سورة أو أطول آية ظهر حكم الإعجاز، كما وقع التحدي في قوله ﷻ: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣]، فبان الإعجاز عند ظهور مقدار السورة من القرآن))(١) .وهكذا يثبت الإعجاز في هذه الأقسام البلاغية العشرة من خلال جمالها، وانتظامها، واجتماع أقسامها في القرآن، والاستشهاد على كل قسم أو نوع من القرآن، مع أهمية أن يكون الإعجاز في مقدار السورة من القرآن أو أطول آية من القرآن.

- بيّن أن القرآن يختص ببعض المصطلحات البلاغية التي تقابل المصطلح البلاغي لدى كلام الناس في الشعر والنثر، كما هو الحال في باب الفواصل، ومقابلتها مصطلح السجع، في تفريق يميز الفواصل وفضلها على الأسجاع، يقول: ((والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها، وهو قلب ما توجبه الحكمة في الدلالة؛ إذ كان الغرض الذي هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعاني التي الحاجة إليها ماسة، فإذا كانت المشاكلة وصلة إليه فهو بلاغة، وإذا كانت المشاكلة على خلال ذلك فهو عيب

(١) ينظر: ثلاث رسائل في أعجاز القرآن: (النكت في أعجاز القرآن ، ص: ٧٨.

ولُكْنة؛ لأنه تكلف من غير الوجه الذي توجبه الحكمة))[١]. ونلحظ هنا أن الرماني يلحّ في مواطن متعددة على اللفظ وسماته بين الحسن والإبانة والوضوح، والبعد عن التكلف، حيث إن رفضه لمصطلح السجع لما قد يقع منه تكلف يذهب وضوح اللفظ ويكدّر على الإبانة صفوها.

- تحدث عن وجوه الإعجاز السبعة وبيّن كل وجه دون أن يرد أحدها أو ينفيها بما في ذلك وجه الصرفة، بل قبله وقال: ((وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول))[٢]

عند الباقلاني:

- وقف على بيان شرف القرآن، وأن الاشتغال بالقرآن من أهم ما يجب على المسلمين، ومواجهة الملحدين الذين خاضوا في أصول الدين وشككوا فيه، وما قام به بعض الجهال من موازنة القرآن بالشعر وتفضيل الشعر على القرآن[٣].
- عرَض آراء السابقين له فيما تحدثوا به من معاني القرآن ونظمه، وحكم على بعض أعمالهم ودراساتهم بالتقصير في بيان وجه إعجاز القرآن، حيث وقف مع الجاحظ في كتابه: (نظم القرآن)، وبين أن القرآن هو معجزة نبوة محمد ﷺ، وأن القرآن معجزة عامة للإنس والجن في سائر العصور، وفنّد قول من قال: إن الإعجاز خاص بأهل العصر الأول، وغير مستلزم عجز أهل الأعصر التالية[٤] .
- بيّن مفارقة القرآن غيرَه من الكتب المنزلة السابقة، وبيين كيفية الدلالة على كون القرآن معجزًا، وذكر أن النبي ﷺ تحدى العرب بالقرآن، وأنهم لم يأتوا بمثله وعجزوا عنه، ووقف

(١) ينظر: ثلاث رسائل في أعجاز القرآن: (النكت في أعجاز القرآن ، ص: ٩٧.

(٢) المرجع السابق، ص:١١٠.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن، ص: ٣-٧

(٤) ينظر: المرجع السابق، ص: ٥-٩

على بعض الاعتراضات التي ترد على ذلك ودفعها، ثم مثل في تأثير القرآن على المشركين، وأنه سبب في إسلامهم لما سمعوه، مثل: جبير بن مطعم، وعمر بن الخطاب ﷺ، وما قامت به قريش من بعض رجالاتها لمجادلة النبي ﷺ ثم ما حدث لهم من التأثر(١) .

- وقف عند القول بالإعجاز بالصرفة، وناقش هذا الوجه، ورد عليه، كما رد على من قال بإعجاز الكتب السماوية الأخرى، وأن القول بإعجاز القرآن يستلزم القول بإعجاز تلك الكتب(٢).
- وقف مع أوجه إعجاز القرآن التي اختارها وهي ثلاثة: الأول: تضمين القرآن الإخبار عن الغيب، والثاني: إتيان القرآن بأخبار الأمم السابقة من لدن آدم إلى بعثة النبي ﷺ، والثالث: بديع نظم القرآن، وعجيب تأليفه، وتناهيه في البلاغة، ثم شرع في بيان الوجوه والمعاني التي يشتمل عليها بديع نظم القرآن، وتأليفه وبلاغته، وذكر عشرة معانٍ: المعنى الأول: ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، المعنى الثاني: كون كلام العرب غير مشتمل على فصاحة القرآن وغرابته، ولطف معانيه، المعنى الثالث: عدم التفاوت والتباين في عجيب نظم القرآن، المعنى الرابع: كون كلام الفصحاء يتفاوت في الوصل والفصل، والعلو والنزل، وغير ذلك، المعنى الخامس: كون نظم القرآن خارجًا عن عادة الثقلين، مع التمثيل على ذلك بأبيات من شعر العرب لبيان الفرق، المعنى السادس: اشتمال القرآن على جميع أنواع الخطاب عند العرب مع تجاوز الحدود المعتاد بينهم، المعنى السابع: تضمن القرآن ما يمتنع على البشر من المعاني في أصل وضع الأحكام والقواعد، والاحتجاج في العقائد والرد على المعاند، المعنى الثامن:

(١) ينظر: إعجاز القرآن ، ص: ١٤- ٢٨.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص: ٢٩-٣٢.

كون الكلمة من القرآن يتمثل بها خاصة في تضاعيف كلام كثير، المعنى التاسع: كون الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرين حرفًا، مع أن عدد سور القرآن المفتتحة بذكر الحروف: ثمان وعشرون سورة، وجملة الحروف المذكورة في أوائل السور أربعة عشر حرفًا، المعنى العاشر: سهولة سبل القرآن، وخروجه عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وبعده عن التصنع والتكلف، وقربه إلى الفهم، ثم شرح أوجه الإعجاز الثلاثة(١).

- وقف على نفي الشعر عن القرآن، ورد على ادعاء من قال بوجود الشعر في القرآن، أو وجود وزن الشعر فيه، وكذلك نفى عن القرآن السجع ومناقشة العلماء في ذلك(٢).
- شرع في بيان المسائل البلاغية التي سماها البديع؛ ليجيب عن سؤال سائل: هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من بديع؟ فاستشهد بالآيات والأحاديث وأقوال العرب، وما جاء في شعر العرب، على تلك المسائل وما سماها من طرق البديع، مثل: الاستعارة، والكناية التي سماها (الإرداف)، والتشبيه الحسن، والغلو والإفراط في الصفة، والمماثلة، والمطابقة، والتجنيس، والمقابلة، والموازنة، والمساواة، والمبالغة، والتوشيح، ورد العجز على الصدر، وصحة الأقسام، والتكميل والتتميم، والترصيع، والتكافؤ، والعكس والتبديل، والالتفات، والتذييل، والاستطراد، والتكرار، والاستثناء، في معرض لا يتجاوز ذكر الأمثلة من القرآن أو حكم العرب، أو الأشعار مع الشرح الوجيز دون أن يقف على بيان كيفية إعجاز تلك الآيات في القرآن وبلوغها المنزلة التي يفرق فيها بين الآية وكلام العرب، وقد أعقب هذه الأبواب بأبيات للشعراء يثبت التكلف فيها والصنعة والتفاوت.
- ناقش شرط خرق العادة في المعجزة القرآنية، وأن مثل القرآن قد يستدركه الراغب من خلال

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن ، ص: ٣٥-٥٠.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص: ٥١-٦٦.

التعلّم والتدرب به والتصنع له، كما هو الحال في الشعر ورصف الخطب، وصناعة الرسالة، وبين أن هذا طريق لا يتعذر في كلام البشر، أما شأو نظم القرآن، فليس له مثال يحتذى عليه، ولا إمام يقتدى به، ولا يصح وقوعه مثله اتفاقًا؛ لأن الشاعر أو الناظم قد يحصل له ذلك في لمع من شعره نادرًا، ومثلًا سائرًا ومعنى بديعًا رشيقًا لكنه في نظمهم ونثرهم متفاوت ولا يتسق مكا يتسق في السورة من القرآن.

- تحدث عن كيفية إعجاز القرآن، وأن أهل الصنعة الكلامية يدركون أنهم عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن، ومقرون بوجه التحدي فيه، وأن من أعظم ما يميز إعجاز القرآن أن أهل الصنعة يختلفون في تمييز شعر بعضهم عن بعض، إذ منهم من يختار الكلام الذي يروق ماؤه، ويكون قريب المتناول، ومنهم من يختار ما يغمض معناه، ويغرب لفظه، ولكل رأي، ولكل مذهب يختص به، وكذلك منهم من يجود في فن دون آخر، كمن يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يجود في الأوصاف؛ لذا عرف كل شاعر بفن معين، وكل كاتب بجنس محدد، ومنهم من يعرف بسرعة البديهة، وحدة الخاطر، وآخرون يعرفون بالتنقيح وطول الصناعة، كما أن أي شاعر منهم لا يسلم من كلمة ساقطة أو لفظ سوقي، وما يقع من بعضهم من أخذ وسرقة من بعض، وكل ذلك معروف لديهم وبائن لدى أهل الصنعة ولا يشتبه ذلك إلا على ناقص في الصنعة أو قاصر في معرفة طرق الكلام، لذا أدرك أهل الصنعة والبلاغة منزلة القرآن التي لا تتفاوت؛ إذ إن القرآن مدرَكٌ حسنه، ومتفق على عجيب نظمه وبديع تأليفه، مع اختلاف آرائهم وتباين مشاربهم، مما يدل على أنه جمع حسن التنوع دون التفاوت بين تلك المشارب وأقسام الكلام(١).
- أثبت إعجاز القرآن من خلال المقارنة بين النظر أولًا في نظم القرآن، ثم في شيء من كلام النبي

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن، ص: ١١٣-١٢٥.

ﷺ وأهل الفصاحة والبيان من شعراء العرب وخطبائهم؛ ليبين الفصل بين النظمين والفرق بين الكلامين، ووقف على جملة من الخطب النبوية وخطب الصحابة ومن بعدهم، وما ورد من أدبيات في كلامهم، ثم أعقب هذه النصوص بقوله: ((انظر -بسكون طائر وخفض جناح، وتفريغ لب، وجمع عقل- في ذلك، فسيقع لك الفصل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين، وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين، وتعلم الحد الذي يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ، والخطيب والخطيب، والشاعر والشاعر، وبين نظم القرآن جملة))[١].

- وازن كذلك بين القرآن ونماذج من الشعر، فدعا إلى أن ينظر الراغب في قصيدة مما اتُفق على كبر حجمها، وصحة نظمها وجودة بلاغتها، ورشاقة معانيها، وإجماعهم على إبداع صاحبها فيها، مع كونه من الموصوفين بالتقدم في الصناعة، ثم يقف على مواضع خللها، وعلى تفاوت نظمها، وعلى خلاف فصولها، وعلى كثرة فضولها، وعلى شدة تعسفها، وبعض تكلفها، وما تجمع من كلام رفيع، يقرن بينه وبين كلام وضيع، وبين لفظ سوقي، يقرن بلفظ ملوكي، وغير ذلك من الوجوه التي يجيء تفصيلها، ويبين ترتيبها ومنزلتها من خلال دراسة تلك الأشعار وتحليلها، فوقف مع شعر امرئ القيس، واختار من شعره معلقته: (قفا نبك من ذكرى حبي ومنزل) وبيّن مآخذه على أبياته، وما يجد فيها من خلل في النظم، في توظيف نقدي وتحليل أدبي يكشف عن مهارة الباقلاني النقدية، مع تحفظنا على تمحُّله أحيانًا في البحث عن الخلل، وأن القرآن يمكن إثبات إعجازه دون الوصول إلى هذه المنزلة من التقعر في البحث عن مواطن الخلل لدى الشعراء، ثم يورد آيات من القرآن ليبين الفارق الكبير بين النظمين في الاتساق وعدم التفاوت، ويقف على شرف النظم وعظيم الرصف، وأن هذه الآيات ليست إلا نماذج للآيات الأخرى، دون انتقاء للأحسن أو الأظهر؛ لأن القرآن كله معجز بنظمه ومكتمل في

(١) ينظر: إعجاز القرآن، ص: ١٥٤.

اتساقه، وإن كان القرآن يتفاوت في ظهور الإعجاز للمتأملين، فبعضه أظهر، وبعضه أدق وأغمض[١]؛ ليختتم الفكرة بقوله: ((وأنت ترى غيره من الكلام يضطرب في مجاريه، ويختل تصرفه في معانيه، ويتفاوت الكثير في طرقه، ويضيق في مذاهبه، ويرتبك في أطرافه وجوانبه، ويسلمه للتكلف الوحش كثرة تصرفه، ويحيله على التصنع الظاهر موارد تنقله وتخلصه، ونظم القرآن في مؤتلفه ومختلفه، وفي فصله ووصله، وافتتاحه واختتامه، وفي كل نهج يسلكه، وطريق يأخذ فيه، وباب يتهجم عليه، ووجه يؤمه، على ما وصفه الله ﷻ لا يتفاوت))[٢].

- ناقش من يقف على الكلمة المفردة في القرآن، وما يرد في مسائل الأحكام الشرعية وغيرها، ويتساءل عن وجه جمالها وتميزها، وبين أن الجمال في السبك والنظم وحسن الترتيب مما يتجاوز اللفظ الواحدة، فالبديع يظهر في النظم والتأليف، والفائدة التي تنوب مناب العدول عن البراعة وتخلف حكمة الإعجاز في النظم في جمال وجه الترصيف[٣].
- تحدث عن القدر الذي يثبت به إعجاز القرآن، وهو السورة من القرآن قصيرة كانت أو طويلة، أو ما كان بقدرها من الآيات، وهو القول المختار لدى الباقلاني، وهو رأي أصحابه من الأشاعرة، ولا يحكم بالإعجاز في أقل من سورة، وأما المعتزلة فقد نقل عنهم أن القدر المعجز هو السورة دون أن يذكروا الآية التي تأتي بقدر السورة، حيث قالو: إن كل سورة برأسها فهي معجزة، وبين مسائل الخلاف في تفاوت ظهور الإعجاز للراغبين في بيانه بين السورة القصير والطويلة، وأن المختار لدى الباقلاني أنه ليس بممتنع اختلاف حال الكلام، حتى يكون الإعجاز على بعضه أظهر، وبعضه أغمض، لكن من آمن ببعضه دون بعض كان مذمومًا،

(١) ينظر: إعجاز القرآن ، ص: ١٥٤- ٢٠٥. وكذلك عرض لأبيات للبحتري وبين ما فيها من مآخذ وتكلف، وخلل. ص: ٢٥١- ٢٥٤.

(٢) المرجع السابق، ص: ٢٠٥، ٢٠٦.

(٣) ينظر: المرجع السابق، ص: ٢٠٧-٢٠٨.

وتحدث كذلك عن العلم بالإعجاز هل هو ضرورة أو استدلالًا، وبين أن الأعجمي لا يمكنه معرفة إعجازه إلا استدلالًا، أما البليغ الذي أحاط بمذاهب العربية فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه عن الإتيان بمثله، ويعلم عجز غيره بمثل ما يعرف عجز نفسه[١].

- شرع في بيان وصف وجوه البلاغة العشرة: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان، وبين تعريفها وأقسامها والاستشهاد عليها بالآيات، وبيّن أن ما وقع في القرآن من الأوجه البلاغية لا يحمل فيه الإعجاز على التشبيه وحده أو الاستعارة وحدها، فلا يقال: إن ما أقسم الله ﷻ به وحده بنفسه معجز، أو إن التشبيه معجز، أو إن التجنيس معجز، أو المطابقة بنفسها معجزة؛ لأن هذا مما يمكن تعلُّمه، وهو واقع في كلام البلغاء من البشر، إنما الإعجاز في ذكر الوجه البلاغي داخل النظم الإعجازي للآية كلها ولنظمه وتأليفها، يقول الباقلاني: «فأما الآية التي فيها ذكر التشبيه، فإن ادعى إعجازها لألفاظها، ونظمها، وتأليفها فإني لا أدفع ذلك، وأصححه، ولكن لا أدعي إعجازها لموضع التشبيه»[٢]، فالإعجاز في هذه الوجوه من جهة ما جمع فيها من وجوه الحسن وأسبابه، وطرقه وأبوابه: من تعديل النظم وسلامته، وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع، وسهولته على اللسان، ووقوعه في النفس موقع القبول، وتصوره تصور المشاهَد، وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف، مما لا ينحصر حسنًا وبهجة وسناء ورفعة، ثم أعقب تقريره هذه المسألة بكيفية ورود الإعجاز في هذه الوجوه البلاغية[٣].

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن ، ص: ٢٥٥-٢٥٩

(٢) المرجع السابق، ص:٢٧٦.

(٣) ينظر: المرجع السابق، ص:٢٧٦- ٢٧٧.

عند عبد القاهر في الرسالة الشافية :

- تحدث عن جملة من القول في عجز العرب حين تحدوا إلى معارضة القرآن، وبيّن أن أصل التفاضل البياني لدى العرب، ومن عداهم تبع لهم، ولا يجوز أن يدعى للمتأخرين عن زمن النبي ﷺ -الذي نزل فيه الوحي وكان فيه التحدي- من الخطباء والبلغاء أنهم زادوا على أولئك الأولين، أو كملوا علم البلاغة أو تعاطيها لما لم يكملوا له. ثم استشهد بكلام الجاحظ في تفضيل العرب على الأمم كلها في الخطابة والبلاغة، ويناضل في ذلك الشعوبية(١).
- بيّن ما يتصل بالشعراء وأحوالهم ومراتبهم حين تلي عليهم القرآن وتحدوا فيه، وملئت أسماعهم من المطالبة بأن يأتوا بمثله، ومن التقريع بالعجز عنه. وبيّن أن العرب لم يخالجهم الشك في عجزهم عن معارضة القرآن والإتيان بمثله؛ لذا كادوا للنبي ﷺ بكل ضروب الكيد لكنهم عجزوا عن القرآن، ونقل جملة من أقوال العرب المشركين الذين حاروا في وصفه، وترددوا، ثم أثنوا عليه في مجالسهم(٢).
- ناقش شبهة أن الخطباء والشعراء الأوائل من الجاهليين قد سبقوا نزول القرآن ولو كان على وقتهم لعارضوه، وردّ عليها، وبين أن العرب روت شعر الأوائل وخطبهم ويعرفون مقاديرهم في الفصاحة معرفة من لا تشكل عليه جهات الفضل عليه، فلو كانوا يرون فيما رووا مزية على القرآن، أو رأوه قريبًا، أو مما يجوز أن يعارض مثله أو يقع لهم إذا قاسوا أو وازنوا، لكانوا يدعون ذلك ويذكرونه، ولو ذكروه لذكر عنهم(٣) .
- ذكر أن الإبهار والمزية، وترك المعارضة لم تسلم إلا للقرآن وحده، وأما الشعراء الجاهليون ممن هم في أعلى الطبقات لم يسلم لهم الإبهار والنقض للعادة، فهذا امرؤ القيس لم يسلم من

(١) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن:(الرسالة الشافية)، ص: ١١٧-١١٩ .

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص: ١١٩-١٢٢ .

(٣) ينظر: المرجع السابق، ص: ١٢٧ .

المعارضة وتفضيل علقمة الفحل نفسه على امرئ القيس في معرض نعتهم للفرس، واحتكامهم لزوج امرئ القيس، وتفضيلها علقمة على زوجها امرئ القيس، وغيرها من المواقف التي تعرض لها كبار الشعراء والبلغاء، ولم يسلموا من المعارضة والمفاضلة، وكذلك لم يسلموا لشاعر واحد راية الشعر أو الخطابة، ويمنحوه التفرد كما هو الحال في تفرد القرآن، حيث نجد طبقاتهم ومنازلهم لا يفردون فيها شاعرًا واحدًا، بل يضعون في الطبقة الواحدة أكثر من شاعر، فطبقة امرئ القيس تجمع معها: زهيرًا والنابغة والأعشى، مما يدل على تكافئهم في المنزلة لديهم، وإن فضل أحدهم شاعرًا واحدًا فهو منازع في تفضيله، غير متفق على تفرده، واختياره(١).

- بيّن أن السبق الذي يفوز به الشاعر أو الفضل الذي يبوّؤه من المنازل إنما هو لمعنى غريب سبق إليه، أو استعارة بعيدة فطن إليها، أو طريقة في النظم اخترعها، وهذا ليس هو المعول عليه في إعجاز القرآن، إنما الشأن في القرآن أن أتى بها مضمومة في نظم بديع، يسمو به النظم القرآني عن سائر النظوم، وما يعرف به أهل العصر من أنه لا يستطيعه، ولا يهتدي لكنه أمره(٢).
- أبطل دعوى الملاحدة أن في المتأخرين من استطاع معارضة القرآن، فترك ذلك خوفًا، أو فعلوا ذلك ثم أخفوه، وأن هذا ممتنع على الأوائل فكيف بالمتأخرين(٣).

٥- منزلة دلائل الإيمان بالله ﷻ ووحدانيته وربوبيته، وكمال علمه وإحاطته وقدرته في مباحثهم البلاغية.

حين نتتبع ما كتبه علماء الإعجاز في القرنين الرابع والخامس نجد أن الإشارة إلى هذه القضية لم تكن على مستوى حديثهم عن الإعجاز والتحدي في القرآن، وكيف تحدى الله سبحانه وتعالى العرب أن

---

(١) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن:(الرسالة الشافية)، ص: ١٢٨-١٣٢.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص: ١٣٣.

(٣) ينظر: المرجع السابق، ص: ١٣٧.

يأتوا بمثله، بيد ثمة إشارات سريعة وردت في كتبهم ورسائلهم، وهي على النحو الآتي:

- من خلال حديثهم عن طبقات الكلام واختلاف البلغاء بين هذه الطبقات، ومقارنة طبقاتهم بطبقة القرآن العليّة التي لا يصل إليها بلاغة البشر، وهو وحده القرآن الذي تجتمع فيه تلك الطبقات المحمودة، وأن اجتماع الطبقات على تباينها لا يحيط بها إلا الله ﷻ الذي يحيط علمه بجميع أسماء اللغة العربية، فهذا الخطابي حين تحدث عن أجناس الكلام ومراتبها المختلفة في نسبة التبيان وتفاوتها، واختلاف درجاتها، وحددها بـالبليغ الرصين الجزل، والفصيح القريب السهل، والجائز الطلق الرسل، وهي أقسام الكلام الفاضل المحمود- ذكر بعدها أن بلاغات القرآن حازت من كل قسم من هذه الأقسام حصةً، ومع كون بعضها تنفرد بنعوت تضاد الأجناس الأخرى، كالعذوبة والجزالة إلا أن القرآن أتى بها جميعًا، ((فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبو كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن، يسرها الله بلطيف قدرته من أمر؛ ليكون آية بينة لنبيه، ودلالة على صحة ما دعاه إليه أمر دينه، وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور، منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ))(١).

- في تقريرهم لتأثير القرآن في النفوس على سامعيه، وما يحدثه من انشراح في الصدر، واستبشار في النفس، وغشيان الخوف، واقشعرار للجلد، وليان للقلوب، فيحدث الإيمان والتصديق، وينقلب العدو مواليًا، والكافر مؤمنًا ، كما حصل لعمر بن الخطاب ﷺ، وجبير بن مطعم ﷺ، وأهل المدينة لما حضروا موسم الحج، حتى روي عن بعضهم أنه قال: فتحت الأمصار بالسيوف، وفتحت المدينة بالقرآن، وكذلك استماع الجن للقرآن وإيمانهم به، أو يبقى على

(١) ينظر: إعجاز القرآن ، ص: ٢٦، ٢٧.

كفره مع إقرار بجمال ألفاظ القرآن وقوة تأثيرها، كما حصل لعتبة بن ربيعة، وللوليد بن المغيرة، وختمهم لهذه المسألة بآيات تدل على تأثير القرآن بجماله اللغوي والمعنوي على زيادة الإيمان وما يحدثه في النفوس من تأثير وقشعريرة ولين في القلوب، وإعجاب به، من أمثال قوله ﷻ:﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[المائدة: ٨٣]، وقوله ﷻ:﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال:٢]، وقوله ﷻ:﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[العنكبوت: ٥١]، وقوله ﷻ:﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣]، وقوله ﷻ:﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] ، وقوله ﷻ:﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن:١، ٢] [(١)]، وختمهم ذكر هذه الآيات أنها من عظيم آياته ودلائل معجزاته، وأن من مقاصد إنزال القرآن أن يقع الاهتداء به، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة، ولا يكون حجة إن لم يكن معجزة – كما يقول الباقلاني[(٢)]– فهم أثبتوا دلائل الإيمان في القرآن وتأثيره في النفوس، وربطوها في وجوه الإعجاز من خلال حجية الاهتداء وكون الاهتداء لا يقع إلا على الحجة، والإعجاز قائم على

(١) ينظر: المرجع السابق (رسالة: بيان إعجاز القرآن) ص: ٧٠، ٧١، و(رسالة الشافية)، ص: ١٢٣، ١٢٤، وينظر: إعجاز القرآن للباقلاني، ص: ٢٧.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن، ص:٩.

الحجة، لكنهم لم يفصِّلوا القول فيها، ولم يبينوا الأوجه البلاغية التي من خلالها تستبين الدلائل الإيمانية، ولم يقفوا على التراكيب التي تستبين من خلالها الدلائل الإيمانية؛ مما يدل على أن ربطهم للدلائل يرتبط أكثر في المعاني والمضامين، كما سيأتي.

- حديثهم عن الإعجاز القرآني في الوجه المتعلق بالأخبار الصادقة في الأمور المستقبلية، وكون القرآن اختص بها لأنها لا تجوز أن تقع على الاتفاق إلا من عند علام الغيوب، ويستشهدون على ذلك بقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧]، بقول الله ﷻ: ﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ١-٣](١) وغيرها من الآيات التي تدل على وعد الله ﷻ في الأمور المستقبلية، لكن حديثهم هنا جاء في سياق المعاني دون الربط بين التراكيب اللفظية ودلالاتها المعنوية على الإخبار بالمغيبات، مما يدل على أن هذا الأمر لم يكن من دراساتهم في الوجوه البلاغية، بل تجدهم يذكرونه بعد شرح الوجوه البلاغية، ويجعلونه قسيمًا لوجه الإعجاز البلاغي، ويثبتون به إعجاز الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل، كما يقول الباقلاني- في معرض ردِّه على من يقول: إن غير القرآن من كلام الله ﷻ معجز، كالتوراة والإنجيل والصحف- «ليس شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف، وإن كان معجزًا كالقرآن فيما تضمنه من الأخبار عن الغيوب»(٢)، بل حين تحدث الباقلاني عما يتضمنه القرآن من صدق الأخبار، وما فيه من دلالة على وحدانية الله ﷻ، ختم كلامه بقوله: «وليس الغرض تحقيق القول في هذا الفصل؛ لأنه خارج عن مقصود كلامنا،

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن ، (رسالة: بيان إعجاز القرآن) ص: ٢٣، و (رسالة: النكت في إعجاز القرآن)، ص: ١١٠، ١١١، وينظر: إعجاز القرآن، ص: ٤٨، وما بعدها.

(٢) إعجاز القرآن، ص: ٣١.

ولكن ذكرناه من جهة دلالة الآية عليه))[١].

- في حديثهم عن مصدرية القرآن وصدق نبوة محمد ﷺ، وأن القرآن حجة من عند الله ﷻ، وأن هذه الحجة اعتمد عليها الوجه الإعجازي في القرآن، فهم يشيرون إلى وحدانية الله ﷻ وربوبيته في بيان أن هذا القرآن يرتقي عن مستوى البشرية، وأن هذا أحد أوجه إعجاز القرآن التي تحدى الله ﷻ البشر أن يأتوا بمثله، وكذلك يقررون في هذا أن المشركين يعلمون علم اليقين أن هذا القرآن ليس من عند محمد ﷺ، بل هو من عند الله ﷻ، وهذا مكمن عجزهم في الإتيان بمثله، يقول الباقلاني: ((إذا ثبت بما نبينه إعجازُه، وأن الخلق لا يقدرون عليه، ثبت أن الذي أتى به غيرهم، وأنه إنما يختص بالقدرة من يختص بالقدرة عليهم، وأنه صدق))[٢]. ويستشهدون في تقرير هذه المسألة بقوله ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣، ١٤] فجعل ﷻ عجزهم عن الإتيان بمثله دليلًا على أنه منه ﷻ، ودليلًا على وحدانيته[٣].

(١) ينظر: إعجاز القرآن، ١٨.

(٢) المرجع السابق، ص: ١٧.

(٣) ينظر: المرجع السابق، ص:١٧.

المبحث الثالث

منزلة دلائل الإيمان بالله ﷻ وكماله في مباحث الإعجاز

من خلال هذه القراءة لأَظْهَرِ المنجزاتِ من الرسائل والكتب التي أسست لوجوه الإعجاز في القرآن، وبينت وجه التحدي فيه، والوجوه البلاغية التي يظهر من خلالها الإعجاز والتحدي أقف مع بعض السمات لهذه الرسائل والكتب، وأبين منزلة دلالة الإيمان بالله ﷻ وربوبيته، وكماله علمه وأحاطته، وتوظيفها في هذه الرسائل والكتب:

أولاً: حين نتأمل الوجه المشترك الذي تتحد هذه المنجزات في مناقشته نجد أنه بيان وجه الإعجاز القرآني الذي تحدى الله ﷻ به العرب أن يأتوا بمثله، وأن المنشأ لهذا البيان هو الوقوف في وجه الملاحدة والطاعنين الذين شككوا في القرآن ومصدريته، والرد على الشبه التي طرحوها على نظم القرآن وتماسكه.

إن الاهتمام بهذا المصطلح جعل مؤلفي إعجاز القرآن، وما بحثوه من مسائل بيان وجوه الإعجاز والتحدي تنحصر دراساتهم في التركيز على الربط بين التحدي، وبيان الوجوه البلاغية في هذا الإطار؛ لذا آثروا مصطلح (الإعجاز) على مصطلح الآية، والبينة، والحجة، والبرهان كما سبق بيانه.

ثانيًا: أنهم لم يتجاوزوا هدف بيان وجوه التحدي، وبيان الوجوه البلاغية التي تخدم هذا الإعجاز والتحدي في القرآن، إلا في نزر يسير لبعض القضايا التي أشاروا إليها إشارات سريعة لا ترتقي إلى أن تكون في جملة دراساتهم واهتماماتهم البحثية في سياق حديث الإعجاز والتحدي.

ومع سمو هدف الإعجاز وبيان التحدي، وكونه مطلبًا قرآنيًا أصيلًا إلا أننا نجدهم اكتفوا بهذا الوجه في التطبيقات البلاغية، ولم يبحثوا الشأن في دلالة المسائل البلاغية على مصدرية القرآن وربانيته، وبيان كمال قدرة الله ﷻ وكمال إحاطته وعلمه، وإن أشاروا إلى هذا المعنى، فإنهم يذكرونه على وجه من الإجمال، أو في وجوه الإعجاز الأخرى، مثل: الإخبار عن الأمور الماضية، أو التنبؤ بالأمور المستقبلية، وسيرد مزيد لتتبع هذه المسائل في المبحث القادم.

ثالثًا: أن مسألة دلالة المسائل البلاغية على الإيمان ووحدانية الله ﷻ وربانيته، وكمال علمه وقدرته لم يكن لها حظ لدى دارسي الإعجاز في مسائل تقرير وجوه الإعجاز من خلال المسائل البلاغية؛ لأن الهدف الحاضر لديهم هو استجماع القوى الذهنية والفكرية واللغوية في الردود على الطاعنين من الملاحدة وغيرهم، فكان التركيز على وجه القرآن الذي يتجه نحو المعاندين المكذبين الذين يناسبهم التحدي وإبطال حجتهم، وأهم ما يخدم هذا الهدف هو بيان وجه التحدي فحسب، وعجز المكذبين والملاحدة من الإتيان بمثل القرآن في وجهه البلاغي؛ لأن المستهدف معاند وملحد، فالذي يناسبه هو بيان وجه الإعجاز والتحدي، دون أن تكون دلائل التصديق الذي يخاطَب بها المؤمنون أو الباحثون عن الحق حاضرة في استدعاء التأليف لديهم، وهذا الهدف صرح به عدد من أهل العلم، كما ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن(١) الباقلاني(٢) وغيرهم

رابعًا: انشغالهم ببعض الأهداف الأخرى التي تخدم المنطلقات الفكرية لهم؛ إذ استثمروا قضية الإعجاز لإظهار الجدل الفكري والانتصار للمذاهب التي ينتمون إليها، إذ اعتمدوا على الجدل، وعلم الكلام في مناقشة كثير من مسائل الإعجاز، لذا نجد العلماء يشيرون إلى هذا الهدف لدى أولئك المتكلين، يقول ابن تيمية: ((إن المتكلمين المبتدعين تكلموا في النبوات بكلام كثير لبسوا فيه الحق والباطل، كما فعلوا مثل ذلك في غير النبوات))(٣)، وفي معرض مناقشته للأشاعرة في

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن، ص: ٢٢، ٢٣، يقول ابن قتيبة: ((وقد اعترض كتاب الله ﷻ بالطعن ملحدون ولَغَوا فيه وهجروا... ثم قضوا عليه بالتناقض، والاستحالة، واللحن، وفساد النظم، والاختلاف... فأحببت أن أنضح عن كتاب الله ﷻ، وأرمي من ورائه الحجج النيرة، والبراهين البينة، وأشف للناس ما يلبسون، فألفت هذا الكتاب جامعًا لتأويل مشكل الفرآن مستنبطًا ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والإيضاح، وحاملًا ما لم أعلم فيه مقالًا لإمام مطلع على لغات العرب؛ لأرِي به المعاند موضع المجاز)).

(٢) إعجاز القرآن، ص: ٦، يقول الباقلاني: ((وسألنا سائل أن نذكر جملة من القول جامعة، تسقط الشبهات، وتزيل الشكوك التي تعرض للجهال، وتنتهي إلى ما يخطر لهم، ويعرض لأفهامهم من الطعن في وجه الإعجاز، فأجبناه إلى ذلك متقربين إلى الله ﷻ ومتوكلين عليه، وعلى حسن توفيقه ومعونته)).

(٣) النبوات، ص: ٦٤٣.

مسألة اشتراطات المعجزة وبيان مجيء المعجزة تصديقًا لدعوى النبوة بيّن أن ((القوم لم يعرفوا دلائل النبوة، ولا أقاموا دليلًا على نبوة الأنبياء، كما لم يقيموا دليلًا على وجود الرب، فليس في كتبهم ما يدل على الرب ﷻ، ولا على رسوله، مع أن هذا هو المقصود من أصول الدين))[1] .

ويقول الرافعي عن بعض علماء الإعجاز الذين أسسوا لأوجه الإعجاز وناقشوها: ((أطالوا في الخصومة، وفخموا ما شاؤوا، ومضغوا من الكلام ما ملأ أفواههم، وجاؤوا لعمري بما هو فلسفة ومنطق، بيد أنهم في كل ذلك توافقوا على صنيع واحد من الرد بعضهم على بعض، فمن فلج بحجته فقطع خصوه عن المعارضة وأفحمه دون المناضلة كان الرأي في الإعجاز ما رآه هو، وكان أكبر البرهان على صوابه عجز خصمه عن تخطئته))[2]؛ لذا نجد الجاحظ يقول عن كتابه الذي ألفه في نظم القرآن- وهو من أوائل من ألف فيه، وإن كان لم يصلنا كتابه- ((كتبت لك كتابًا أجهدت فيه نفسي، بلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، وللرد على كل طعان، فلم أدع فيه مسألة لرافضي ولا لحديثي ولا لحشوي ولا لكافر مبادر ولا لمنافق مقموع ولا لأصحاب النظام، ولمن نجم بعد النظام ممن يزعن أن القرآن حق، وأن تأليفه ليس بحجة، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة))[3]. ويعقّب الباقلاني على ما كتبه الجاحظ في شأن نظم القرآن فيقول: ((وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتابًا، لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى))[4].

خامسًا: أن المنطلق الفكري الذي ينطلقون منه شغلهم عن الحديث عن الجانب الإيماني، لذا

---

(١) النبوات ، ص:٧٩٥.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: ٩٩.

(٣) رسائل الجاحظ (الكلامية)، ص: ٣٧٣.

(٤) إعجاز القرآن، ص: ٦ . وهذا ما يكشف لك نزعة الخلاف بين أهل المذاهب؛ فهذا الباقلاني الأشعري يقلل مما كتبه الجاحظ المعتزلي فيما يتصل بوجوه الإعجاز وما يمكن أن يكشف من خلال مؤلفه من شبهات، ويزيل الإشكالات والمطاعن.

جاءت الوظيفة البلاغية مرتبطة عندهم بمذاهبهم الفكرية؛ إذ نجدهم حين تحدثوا عن بيان أوجه الإعجاز استثمروا مسألة الإعجاز في تحديد الوظيفة البلاغية بين الوظيفة الإيصالية الفنية التي تعتني بجودة اللفظ ومستواه، والوظيفة الكشفية التي تعتني بالمعنى وبيان كشفه، ومكمنه في النفوس؛ بناء على منطلقاتهم الفكرية التي يفسرون بها مفهوم (كلام الله ﷻ) وما يحملونه من معتقدات حيال هذا المفهوم؛ إذ تخص كل طائفة من المعتزلة والأشاعرة في تفسير الإعجاز انطلاقًا من إيمانهم بهذا المفهوم، فالمنطلق العقدي تجاه الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، واختلاف المنطلقات العقدية خاصة في صفة كلام الله ﷻ أثّر في عرض قضاياهم البلاغية والنقدية؛ إذ ((لعب الاختلاف حول طبيعة كلام الله ﷻ نفسُه دورًا في توجيه البحث البلاغي خاصة حين اشتدَّ الوعي بهذا السؤال في القرن الخامس))[١].

فالمعتزلة يرون أن كلام الله ﷻ من صفات الفعل لا من صفات الذات، إذ هو مخلوق بائن عن الذات، محدث، ويبنى على هذا الكلام أن يكون كلام الله (القرآن) قد حدث بعد وجود اللغة العربية؛ فالقرآن ليس شيئًا آخر غير تلك الأصوات والألفاظ التي يتكون منها، وأن تكون تلك الأصوات والألفاظ لا تعني البعد الصوتي الذي يسمع أثناء التلاوة، الذي يتلقاه الأجنبي من غير العرب، ولكنها تعني تلك البنية الصوتية المحكومة بقوانين إيقاعية، ونحوية، وصرفية، وبلاغية تجعلها تقدم ما تقدمه من دلالة .

ومعتقدهم في كلام الله ﷻ قد حدد موقفهم البلاغي والنقدي إلى حد كبير؛ ((إذ يلزم قولهم بأن كلام الله ﷻ من صفات الفعل أن يكون ذلك الكلام حادثًا، ودفعهم القول بحدوث كلام الله ﷻ وخلق القرآن إلى التركيز على الجانب اللفظي دون المعنوي في تحديدهم للكلام، وأجمع أكثرهم على: أن كلام الإنسان حروف وكذلك كلام الله ﷻ، يعني أنه الأصوات المنظومة المقيدة

(١) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها: لمحمد العمري، ص:٢٧.

التي تترتب في الحدوث على وجه مخصوص)) [١].

وهذا الاعتقاد الاعتزالي انعكس كذلك في تحديد مفهوم البلاغة ووظيفتها، إذ يرى الرماني المعتزلة أن وظيفة البلاغة هي: ((إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ)) [٢].

وإذا تأملنا ما كتبه الرماني عن البيان المعجز وجدناه ينحو به من الاهتمام باللفظ المفرد إلى ما يسميه بـ(التأليف) وهذا ما يتناغم مع الرؤية الاعتزالية في الاهتمام باللفظ وتراكيبه، فالتأليف يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالألفاظ وحياكتها، دون مفهوم النظم الذي اعتمده عبد القاهر كما سيأتي، يقول الرماني: ((فأما دلالة التأليف فليس لها نهاية، ولهذا صار التحدي فيها بالمعارضة؛ لتظهر المعجزة، ولو قال قائل: قد انتهى تأليف الشعر حتى لا يمكن أحدًا أن يأتي بقصيدة إلا وقد قيلت فيما قيل، لكان ذلك باطلًا؛ لأن دلالة التأليف ليس لها نهاية، كما أن الممكن من العدد ليس له نهاية يوقف عندها لا يمكن أن يزاد عليها)) [٣].

أما الأشاعرة فيرون أن صفات الله ﷻ مستقلة عن ذاته، فهو قادر بقدرة مستقلة عنه، وعالم بعلم مستقل عنه، وقالوا: إن هذه الصفات قديمة، وكذلك كلام الله ﷻ. وإذا كان اللفظ محدثًا وتابعًا للغات المحدثة، وجب أن يكون الكلام -كلام الله ﷻ القديم الموجود قبل حدوث اللغة- هو المعنى القديم القائم في ذات الله.

وعلى هذا الاعتقاد في كلام الله ﷻ ركز الأشاعرة على المعنى القائم في النفس، فجاءت وظيفة البلاغة لديهم هي الكشف عن المعنى في الذات، وطريقة ترتيب المعنى في الذات الذي يتبعه ترتيب الألفاظ في النظم، فالباقلاني الذي يمثل عقيدة الأشاعرة يرى أن البلاغة تتركز في الإبانة عن

(١) ينظر: الإعجاز القرآني وآلية التفكير النقدي لدى العرب: لعلي مهدي زيتون، ص: ١٣٥.

(٢) النكت في إعجاز القرآن، ٧٥، ٧٦.

(٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، (النكت في إعجاز القرآن)، ص: ١٠٧. وهذه المذهبية الفكرية والوظيفة الإبلاغية الإيصالية نجدها عند الجاحظ، والقاضي عبد الجبار، وابن سنان وغيرهم ممن أهل الاعتزال والاهتمام بالصنعة.

الأغراض التي في النفوس، وحين يكون الكشف عن المعنى هو همّ البلاغة الأساس، فإن الأمر عائد إلى اعتبار الكلام معنىً قائمًا في النفس؛ ((لأن من يعد الكلام قائمًا في النفس ينطلق من فهم للمعنى قوامه: بنية منتظمة من الأفكار يتوقف نجاح الكلام على اقتداره على اكتناء تلك المنظومة المعنوية، واكتشاف أبعادها، وحين يكون الكلام معنى يصير نجاح الكشف مساويًا لنجاح الكلام، وتصير البلاغة هي الكشف عن المعنى، وهذا ما جعل معظم الدارسين المنتمين إلى هذا التيار يميلون إلى دراسة البلاغة؛ لأن دراسة البلاغة تهتم بشكل أساس بالدلالة التي هي مادة الكشف، ودراسته تعني: التعرف على التطابق والانسجام بين الكلام المقول والمعنى الذي كان قد شكّل نظامًا بنيويًا في النفس)) (١).

ومن خير من يمثل هذا الاتجاه الأشعري عالمان من أعلام البلاغة، هما: الباقلاني، وعبد القاهر الجرجاني، من حيث النضج الفكري، وازدهار العلوم العربية في عصريهما، فالباقلاني حدّد وظيفة الكلام قائلًا: إنه: ((موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس))(٢). أما عبد القاهر فقد رفض أن يكون مكمن الإعجاز هو اللفظ، وأن الترتيب مستقل بذات اللفظ، وإن سمي تأليفًا أو ضمًّا، فإن ذلك لا يسمو نحو المزية البلاغية ومكمن الإعجاز والتحدي؛ إذ لا بد أن يعلق ذلك الترتيب بالمعاني التي في النفوس، والترتيب المعنوي الداخلي الذاتي قبل أن يخرج إلى الترتيب اللفظي، وهنا تكمن أهمية النظم في استحضار ذات المتكلم، وأهمية تراتبية الكَلِمِ في ذهنه وفكره، وأسبقية هذا الترتيب للترتيب الحرفي؛ لذا نجده حين يورد نظم الحروف وتواليها في النطق ينفي المزية عنها حين يكون الترتيب النفسي خارج المقتضى والمعتبر، يقول عبد القاهر: ((نظم الحروف هو تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتفٍ في ذلك

---

(١) الإعجاز القرآني، وآلية التفكير النقدي لدى العرب، ص:١٣٧

(٢) إعجاز القرآن: للباقلاني، ص: ١٧٨.

رسمًا من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحرّاه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال:(ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد، وأمّا نظم الكلِم فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي بمعناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق))(١).

وناقش وجه الإعجاز ليخلص إلى نظرية النظم التي تعتمد على المعنى، وكون اللفظ تابعًا للمعنى لا العكس، ويقرر حقيقة مهمة في كون المزية: ((من حيز المعاني دون الألفاظ، وأنها ليست لك حيث تسمع بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك، وتستعين بفكرك، وتعمل رويتك، وتراجع عقلك، وتستنجد في الجملة فهمك)) (٢).

سادسًا: بعد التتبع لإيراد دلائل الإيمان بالله ﷻ ووحدانيته، وبيان كمال علمه وإحاطته وقدرته في مباحثهم نجد أنها لم تكن أصلًا لديهم في مبحث الإعجاز البلاغي، بل كانت تأتي في معرض الحديث عن الوجوه التي تقاسم الوجه البلاغي، وإن كانوا ربطوا بين جمالية اللفظ وحلاوته في القرآن والتأثر النفسي والإيماني، والدخول في الإسلام إلا أنهم ذكروا ذلك عرضًا دون تفصيل أو تحليل لجمالية الألفاظ والتراكيب التي وردت في تلك الآيات المؤثرة، مع أن الآيات التي ذكروها تحمل دلالات تركيبية تدل على وجه الإعجاز العلمي والإعجاز الغيبي وغيرها، وهذا ما سنجده عند التحليل البلاغي للمسائل البلاغية في تلك الآيات التي استشهدوا به، وغيرها مما سيظهر مدى حضور هذه الدلائل في دلالات التراكيب، وجماليات الألفاظ.

(١) دلائل الإعجاز، ص: ٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص:٦٤.

المبحث الرابع

دلائل الإيمان بالله ﷻ وكماله من خلال وجوه البلاغة.

ليس يخفى على أي قارئ للقرآن ودارس لآياته المقاصد العظمى التي نزل بها القرآن، والدلائل الباهرة التي جاءت به أحكام القرآن وتنزلت على النبي ﷺ، وهذه المقاصد منها ما يتصل بالمضامين، ومنها ما يتصل بالألفاظ التي تدل على المضامين، ولئن كان الإعجاز القرآني البياني وجهًا ظاهرًا في إثبات التحدي للعرب أن يأتوا بمثله، ودلائل الآيات عليه متواترة وصريحة، فإن ثمة وجهًا آخر من الوجوه التي لم يحظ بالاهتمام لدى دارس البلاغة ، وهو الربط بين الوجه البلاغي ودلائل الإيمان بالله ﷻ ووحدانيته وربوبيته، وكمال علمه وقدرته وإحاطته، وهذا الوجه- كما رأينا- يذكره العلماء في معرض حديثهم عن المضامين، وهو من الأوجه التي اعتمد عليه دارسوا الإعجاز العلمي – لا سيما في العصر الحديث- فتراهم يعكفون في دراساتهم البحثية على الربط بين الإعجاز العلمي وما يستجد في هذا العصر من أمور تحدث في الكون أو في عوالم النفس البشرية أو في تاريخ البشرية أو في الأمور الغيبية، أو غيرها مما يختص به الدارسون، وبين الدعوة إلى الإيمان بالله ﷻ ووحدانيته وربوبيته، وكمال علمه وقدرته، مع كون دعواتهم إلى الإيمان قد لا تكون دعوة مباشرة، بل تأتي من خلال بيان عظمة الخالق ﷻ والدعوة إلى التفكر في مخلوقاته؛ ليجد المتأمل حاله أمام عظمة الخلق، وانشداه العقل، وثبات عجز البشرية أن تقود هذا الكون أن تدبر فيه، فما يملك إلا أن ينطق بوحدانية الله ﷻ، والانقياد والتسليم لربوبيته ﷻ.

وإذا كان هذا المعنى السامي لدى هؤلاء العلماء مع كون القرآن لم يتحدَّ البشرية أن تأتوا بمثله في المضامين وعلوم الغيب المعجزة فإن الأولى بأهل العربية وأساطين البلاغة أن يدلفوا إلى هذا المقصد الرباني، وأن يكون لهم قصب السبق فيه.

إن القرآن الذي جاء بآيات التحدي هو الذي جاء بآيات التدبر والدعوة إلى الإيمان باللهﷻ، ولئن كان إظهار التحدي، وإثبات عجز العرب وغيرهم أن يأتوا بمثل القرآن هدفًا في تنزيل القرآن،

فإن ثمة هدفًا يتلو هذا الهدف، فحين يَثبت عجز السامع إلى الإتيان بمثله، ويقر بذلك العجز قولًا أو حالًا فإن الذي يعقبه من المقاصد السامية أن ينقاد إلى الأمر الذي أقر به، واستسلم له؛ لذا نجد أن ثمة أمرين يشاركان إثبات التحدي في القرآن وكلاهما جاءت به الآيات، وهما:

- زيادة مستوى التصديق لدى المؤمنين؛ كي يزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، كما مرّ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال:٢]، وقوله ﷻ: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].
- دعوة الكفار الذين يُقرّون بمصدرية القرآن وأنه من عند الله ﷻ إلى الدخول في دين الله، فإن من عرف الله حق المعرفة، وأراد الله هدايته، شرح صدره للإسلام، وهداه إلى صراطه المستقيم، كما حصل لعمر بن الخطاب ﷺ، وكذلك لجبير بن مطعم، ودخولهم الإسلام حين سمعوا القرآن، كما مر.

إن مما يجب أن يوظفه الباحثون في البلاغة القرآنية خصوصية النص القرآني من خلال مصدريته، وأنه من عند الله ﷻ، وأن هذه الخصوصية اكتسبها النص القرآني والمضامين القرآنية من مصدريته، فكما أن الله ﷻ أحاط بكل شيء علمًا، فإنه ﷻ ((أحاط بالكلام كله علمًا، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظ تصلح أن تلي الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل، والنسيان، والذهول، وعلوم ضرورة أن بشرًا لم يكن قط محيطًا))(١).

ومن هذا المنطلق السامي والمقاصد الربانية كان لزامًا على أهل البيان أن يكون لهم نصيب

(١) المحرر الوجيز، ١/ ٥٢.

في بيان دلائل الإيمان بالله ﷻ والربط بين بيان وجوه إحاطة علم الله ﷻ بكل الأشياء، وبيان إحاطة علم الله ﷻ بكلامه في محكم التنزيل، من خلال الوجه البلاغي والتراكيب البيانية، وأن يشرعوا في البحث في هذا الجانب لعلهم يشفون غليل دراساتهم، ويكون لهم قصب السبق في بحث الدلائل؛ حيث هم أرباب الوجه البلاغي الذي تحدى به القرآن، وألا يقتصروا على هذا الوجه الذي توقفوا عنده، ولم يستكملوا ما تلاه من مقاصد ربانية في التنزيل.

وسأقف هنا على آيات متنوعة لأستكشف مدى حضور الوجه البلاغي في دلائل الإيمان من خلال الإعجاز العلمي والغيبي وغيرها، وهي إشارات لا يمكن أن تستوعب هذا المجال سوى أن تكون مؤشرًا إلى مدى وجود الوجه البلاغي، واستيعابه لبيان الإعجاز العلمي والغيبي وأسرار النفس ومراحل خلقها وتطورها، وألا يكون الهدف لدى البلاغيين هو إظهار وجه التحدي في الجانب البلاغي فحسب، وكذلك لا يكون إظهار دلائل الإيمان ووحدانية الله ﷻ وكمال علمه هي مهمة أهل المضامين من أرباب الإعجاز العلمي والغيبي والنفس البشرية، فمما يحسن الوقوف عنده الأوجه الآتية:

- **دلائل الإيمان في بلاغة الإعجاز الغيبي**

حين نتأمل القرآن نجد أنه تحدث في مواطن عدة عما يستقبل الناس من الأحداث، وهذه الأحداث إما أن يَعِدَ القرآنُ أنها ستحدث قريبًا، وقد حصلت وشاهدها الناس، وإما أن تكون في آخر الحياة الدنيا وأشراط الساعة، وإما أن تكون في الحياة الآخرة، والوعد في حصول الأمور المستقبلية بالنسبة لفترة التنزيل والخطاب القرآني تأتي على وجوه بلاغية متعددة يستبين من خلالها دلالة الإيمان بوحدانية الله ﷻ وتفرده بإنجاز هذا الوعد، مما يعجز عنه البشر، فمن ذلك ما يكون التعبير عنه بألفاظ الزمن الماضي مع كونه مستقبلًا؛ لأن وعد الله ﷻ يتعالى على الزمن البشري، فهو في مقام الألوهية متحقق كتحقق الزمن الماضي، ومنها ما يكون التعبير عن الأمور المستقبلية بتأكيد القسم على وقوعه، وهذا محال في حق البشر أن يقسم على زمن مستقبل ما

يدري ما يحدث فيه، ويؤكده، وتارة يعِد الله ﷻ بأمر، ثم إذا قص علينا خبر تحقق الأمر الموعود أتى بألفاظ الوعد نفسها، وإن كان لها مرادفات أخرى استعملها في مواطن متعدد من كتابه؛ تحقيقًا لدقة إنفاذ الوعد وقدرته ﷻ على الوفاء به، وأن وعده الوعد الذي لا يخلف، ومنها ما يأتي بأسلوب الاستفهام الإنكاري المشرب معنى النفي، والمبنى على أفعل التفضيل في سياق من التأكيد على تفرد الله ﷻ بهذا الأمر ونفيه عن غيره، وكونه ﷻ هو الأعلى والأصدق، والأوفى وغيرها من وجوه التعبير عن الوعد.

فمما اجتمع فيه لفظ الماضي والقسم ما وعد الله سبحانه وتعالى به المؤمنين بدخول مكة فاتحين، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:٢٧] لقد رأى رسول الله ﷺ رؤيا قبل خروجه إلى الحديبية، أو وهو في الحديبية: كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين، وحلقوا وقصروا، وقصَّ رسول الله ﷺ رؤياه على أصحابه، فاستبشروا بها، وعبروها أنهم داخلون إلى مكة بعمرتهم التي خرجوا لأجلها، فلما جرى الصلح، وتأهَّب الناس إلى القفول أثار بعضُ المنافقين ذكر الرؤيا فقالوا: فأين الرؤيا؟ فوالله ما دخلنا المسجد الحرام، ولا حلقنا وقصرنا(١).

جاءت هذه الآية لتؤكد صدق الرؤيا، وأنها لم تحدد بوقت معين، إلا أن الأمر متحقق لا محالة كما وعد الله ﷻ، وأثبت ﷻ هذا الوعد بصيغة الماضي: ﴿صَدَقَ اللَّهُ﴾ ونسبه لنفسه ﷻ، واختار لفظ الجلالة (الله) لسياق التفرد بالوحدانية في تدبير الأمور، فهو «الملك الذي لا كفوء له المحيط بجميع صفات الكمال»(٢)، وجاءت هذه الصيغة المحققة للوعد، كي لا يكون للمنافقين مدخلٌ

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ٢٦/ ١٩٧.

(٢) نظم الدرر، ١٨/ ٢٣٣.

للتكذيب أو إيذاء النبي ﷺ وأصحابه بنشر البلبلة، وتكذيب رؤيا النبي ﷺ، وهذا ما لا يملكه أحد من البشر في التصديق إلا بعد وقوع الأمر، فالصدق بتمام الوعد لا يحصل من البشر إلا بعد التأكد من وقوع الحدث، وهذا في حق البشرية أما في حق الله ﷻ وهو القادر على إنفاذ وعده الذي لا يخلف، وسبق علمه ﷻ، وسبق كتبه للغيب وتقديره للأمور فهو في حقه في عداد الماضي المتحقق، ثم أعقب هذا الفعل الماضي باختيار لفظ الحق؛ تأكيدًا للوعد الذي يطابق الواقع، فهو في جناب الله ﷻ لا يدخله الظن أو رجحان اليقين، بل هو الوعد المتحقق، المطابق للواقع كما وعد الله ﷻ، ثم أعقب وعده بالتأكيد كذلك للمستقبل ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ فهذا وعد قد تحتم أمره، ثم أثبت علمه بما لم يعلمه.

ويزداد اعتبار المؤمن في تحقيق وعد الله ﷻ وسبق علمه حين يتأمل العطف على ﴿صَدَقَ﴾ الأفعال الآتية وكلها ماضية: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ ((والمراد: بعلمه ﷻ العلم الفعلي المتعلق بأمر حادث بعد المعطوف عليه أي: فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة ما لم تعلموا من الحكمة الداعية إلى تقديم ما يشهد بالصدق علمًا فعليًا، ﴿فَجَعَلَ﴾ لأجله، ﴿مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أي: من دون تحقق مصداق ما رآه من دخول المسجد الحرام ...﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر، والمراد بجعله وعده وإنجازه من غير تسويف؛ ليستدل به على صدق الرؤيا، حسبما قال: ولتكون آية للمؤمنين))(١).

ونجد ألفاظ الماضي كذلك في وعود النفخ في الصور وأحداث الآخرة، وهي كثيرة لا مجال لحصرها، لكنني أقف مع واحد منها، وهو قوله ﷻ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف: ٩٩، ١٠٠] فنلحظ أن الله ﷻ عبّر عن النفخ في الصور وعرض جهنم على الكافرين بصيغة الماضي، فاستعمل

---

(١) تفسير أبي السعود، ٥/ ١٦٦.

الماضي موضع المضارع؛ تنبيهًا على تحقيق وقوعه، ثم أكد بالمصدر الفعلَ الماضي الدال على تحقق الجمع الناس، وكذلك الفعل الدال على عرض جهنم على الكافرين؛ تأكيدًا لتحقق الجمع والعرض، وأنه جمع حقيقي، وعرض حقيقي ليسا من المجاز، وفي تنكير الجمع والعرض تهويل[1].

وأما إعادة ألفاظ الوعد نفسها بعد التحقق، فمنه قوله ﷻ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧] فقد وعد الله ﷻ أم موسى أن يرد موسى عليه السلام إليها، وأن يجعله من المرسلين، وحين تحقق الوعد أتى بلفظ الوعد ﴿رَادُّوهُ﴾ في قوله ﷻ: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فقال: ﴿فَرَدَدْنَاهُ﴾ مع أنه ﷻ عبر عن هذا في موضع آخر بالرجوع كما في قوله ﷻ: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾[طه:٤٠].

ومما جاء كذلك على هذا النسق حين وعد الله ﷻ المؤمنين بالجنة وختم الآية بالفاصلة القرآنية: ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠] فلما حكى الله ﷻ كلام المؤمنين في الجنة وفوزهم بما وعدهم الله ﷻ ختم قولهم المحكي بمثل الفاصلة القرآنية التي وردت في الوعد مع أن تركيبها بهذين اللفظين لم يرد في القرآن كثيرًا، فقال ﷻ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[فاطر: ٣٣، ٣٤] فكان التماثل ودقة تنفيذ الوعد حتى في الألفاظ التي وعدوا بها، وهذا مبهر في تجلي قدرته ﷻ على الوعد بالأمور المستقبلية وهي في مقام قدرته لا تختلف عن الماضي والحاضر.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ١٦/ ٤١.

ومن وجوه البيان في الأمور المستقبلية مجيء أسلوب الاستفهام الإنكاري المشرب بالنفي مع تضمين الأسلوب أفعل التفضيل، وهذه في آيات عدة، منها، قوله ﷻ: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]، قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾ [التوبة:١١١]فنلحظ هنا أن الآيات الكريمة اشتملت على سياق وحدانية الله ﷻ وقدرته على جمع الخلق يوم البعث، وأن هذا اليوم لا شك فيه، وكذلك سياق وعد المؤمنين بدخول الجنة، فجاءت التعقيب بعد الوعد بهذا الأسلوب الذي يمتلئ صدقًا وتفردًا ووحدانية، مع عجز البشرية أن تصل إليه، وهذا العجز يستبين من خلال استعمال الاستفهام المجازي الذي يحمل معنى النفي، أي: لا أحد أصدق من الله ﷻ[١]، ولا أحد أوفَى من الله ﷻ، مع تضمين هذا الأسلوب أسلوب التفضيل الذي يكسب المعنى تفرد الله ﷻ ووحدانيته بالصدق المطلق، والوفاء الكامل، الذي يدانيه صدق ووفاء من سواه.

- **دلائل الإيمان في بلاغة الإعجاز العلمي في النفس البشرية.**

وفي هذا الجانب سأقف مع جماليات ألفاظ القرآن وما فيها من بيان لأسرار النفس البشرية من جانبين: الجانب الأول: حديث القرآن عن مراحل خلق الإنسان وأسراره، الجانب الآخر: حديث القرآن عن جانب الصفات النفس البشرية، وما كشفه الله ﷻ من أسرار في الأحوال والأقوال، وسأمثل لهذين العاملين سأتحدث من خلال بيان التراكيب البلاغية وما تكشفه من جماليات تبين وحدانية الله ﷻ وكمال علمه وقدرته.

---

(١) بنظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، ١/ ٢٢١، وقد أشار إلى خلاف المفسرين في توجيه الاستفهام بين الإنكار، والنفي، واختار النفي، وتوسط بعض العلماء فقالوا: إنكار مُشرَبٌ بالنفي.

الجانب الأول: مراحل خلق الإنسان وأسراره البيانية.

جاء حديث القرآن عن مراحل خلق الإنسان في بطن أمه في مواطن متعددة، من ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤]. نلحظ في هذه الآيات بيان لمراحل خلق الإنسان منذ أن تكوّن خلقه الأول من سلالة الطين، ثم كونه نطفة في بطن أمه، ثم تطور خلقه إلى أن كان علقة، ثم مضغة، ثم تخلقت المضغة وأصبحت عظامًا، ثم كسا العظام باللحم، وأعقب ذلك بالإشارة إلى عظمته ﷻ وأنه أحسن الخالقين، في إثباتٍ لكل من ادعى الخلق أو الصنع، فإنه يستحيل عليه أن يضاهي خلق اللهﷻ فهو أحسن الخالقين.

يتجلى الوجه البلاغي هنا في إثبات دقة خلق الله ﷻ وتناغمه وإبداعه وانسجامه حين ننظر إلى نظم التراكيب، والعطف بين الجمل الأولى بحرف (ثم)، التي تشير إلى الترتيب والتراخي، وبعد استقرت النطفة وأصبحت علقة، أعقب هذا الترتيب بترتيب يحمل معنى الترتيب والتعقيب، فجاء بحرف العطف (الفاء) فما سر هذا التنوع في الترتيب؟ يجيب عن هذا دارسو الإعجاز العلمي، فيفسرونه بأنه «أحدث ما في علم الجنين أن هناك فترة زمنية بين مرحلة النطفة ومرحلة العلقة، هذه الفترة تزيد على أسبوعين، حيث يتباطأ فيها نموّ الجنين، لأن هذه المرحلة مرحلةُ انغراز النطفة في جدار الرحم، والجنين في هذه المرحلة لا ينمو، ولكنه يوطّد طرائق امتصاصه للغذاء من الرحم، ولا يكون في هذه المرحلة إلا كقرص من الخلايا المنتظمة على شكل صفّين متوازيين، فهذا البطء في مرحلة نمو الجنين في الأسبوع الثاني والثالث من اللقاح عبّر اللهﷻ عنه بحرف (ثم)، أما من العلقة إلى المضغة فقال عز وجل ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾، وفي مرحلة واحدة قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾. خلال أسبوعين لا تتّجه هذه البيضة الملقّحة التي تكاثرت إلى مائة خلية إلى النمو، بل تتجه إلى تمكين نفسها

من جدار الرحم، لذلك يتباطأ النمو، فجاء القرآن وهو كلام الخالق معبّراً عن هذه الحقيقة العلمية بحرف ثم))(١).

فهنا يستعمل النظم القرآني حرف العطف (الفاء) الدال على الترتيب والتعقيب عندما ينتقل الجنين من مرحلة إلى مرحلة أخرى مع استمراره في النمو دون انقطاع زمني، كما في الانتقال من المضغة إلى تخلّق العظام، وكما في كسوّ اللحم فوق العظام. ولكنه يستعمل القرآن حرف العطف (ثمّ) الدال على الترتيب مع التراخي، عندما يـ صبح هناك فترة زمنية يتوقّف فيها النمو قليلاً، كما في مرحلة العلقة.

ونلحظ أيضًا وجهًا بلاغيًا آخر، وهو استعمال النطفة مفردة، ولم يقل: (نطف) بالجمع، وهذا الإفراد جاء في مواضع عدة من كتاب الله ﷻ، منها: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢] ويعلل أهل الإعجاز العلمي ذلك بأن ((الملايين من النطف التي تسبح بسرعة باتجاه البيضة الموجودة في الرحم ستعود كلها خائبة خاسرة، وذلك لأن أول حيوان منوي (أول نطفة) سيـ صل إلى البيضة، سيفوز بسبق التلقيح... إن الرجل في اللقاء الواحد يَخرج منه ما يزيد عن ثلاثمائة مليون حيوان منوي، وأن حيوانًا واحداً فقط يلقّح البويضة))(٢)، فتبارك الله ﷻ أحسن الخالقين الذي أظهر علمه للبشرية حين اكتشفوا هذا الأمر، وعلموا أن الإفراد له دلالته في إبداع الخلق واكتماله، وهذا في سابق علم الله ﷻ، فهل يشكل أحد في هذا التفرد بسبق العلم ووحدانية الخلق، وربوبيته ﷻ.

ومما جاء من أسرار خلْق الإنسان قوله ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ

---

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، آيات الله في الإنسان، أ.د. محمد راتب النابلسي، ص١٥٥، ١٥٦.

(٢) رأيت الله بإعجاز علمي في تنزيل سماوي، عبدالرحمن محمد علي العكّاري، دار الإرشاد للنشر، سوريا حمص، ٢٠٠٦، ص ٦٣، ٦٤.

﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢] فنلحظ تقديم السمع على البصر، وهذا مما اكتشفه العلم الحديث في كون قدرة الأنسان على السمع تسبق قدرته على البصر حتى إنه يسمع وهو في بطن أمه؛ إذ ((تنشأ حاسة السمع في الشهر السادس والنصف (قبل الولادة)، ولا تنشأ حاسة البصر إلا بعد الشهر الثالث والرابع من الولادة، هذا الذي ذكره العلماء ذكره الله ﷻ في سبع عشرة آية في كتاب الله، حيث قدّم الله فيها السمع على البصر تقديم أهمية، وسبقٍ في الخلق))(١). كما أن هذا التقديم في الآية السابقة وغيرها يؤكّد كون السمع أهم بالنسبة للإنسان، لارتباط السمع غالبًا بالعقل والفهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وهذا ما يؤكده العلماء من أن ((السمع أخطر في حياة الإنسان من البصر)) (٢). وبهذا تتجلى قدرة الله ﷻ في بيان علمه وكمال قدرته من خلال التراكيب البلاغية التي أسهمت في كشف الإعجاز العلمي في خلق الإنسان.

الجانب الآخر: صفات النفس البشرية وأسرارها البلاغية

الله ﷻ هو خالق النفس البشرية، وهو الذي سوّاها، وألهم فجورها وتقواها، والجميل في هذا الأمر أن نجد التراكيب البلاغية تكشف هذا مكامن النفس البشرية، وأحوالها وأفعالها، وما تحدث به نفسها، لتمنحنا هذه التجليات عظمة الخالق ﷻ الذي أعطى كل شيء ثم هدى، وتقود إلى أن هذا النص القرآني لا يمكن أن يتكلم به البشر، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب، وسأقف على مثال لهذه النفس البشرية وأحوالها يستبين من خلاله كمال علم الله ﷻ وقدرته، يقول الله ﷻ: ﴿لَن يَضُروكُمۡ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[آل عمران: ١١١] إذا تأملنا قوله: ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ وجدنا أنها جاءت مرفوعة وقد سبقت بحرف عطف، وما سبق حرف

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، آيات الله في الإنسان، أ.د.محمد راتب النابلسي، ص٢٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣٧.

العطف هو فعل مجزوم ﴿يُوَلُّوكُمُ﴾ لكونه جواب الشرط. فالسؤال هنا لماذا جاء الفعل مرفوعًا، وما علاقة هذا الفعل بدراسة حال النفس البشرية ومكامنها؟

إننا حين نعرف سر هذا الرفع من خلال كلام المفسرين ندرك تلك العلاقة بينهما، يقول الزمخشري: ((فإن قلتَ: هلا جزم المعطوف في قوله: ﴿ثم لاينصرون﴾؟ قلتَ: عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداءً، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون، فإن قلت: فأي فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ قلت: لو جزم لكان نفي النصر مقيدًا بمقاتلتهم، كتولية الأدبار، وحين رفع كان نفي النصر وعدًا مطلقًا، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها، وأبشركم به بعد التولية أنهم مخذولون منتفٍ عنهم النصر والقوة لا ينهضون بعدها بجناح ولايستقيم لهم أمر، وكان كما أخبر من حال بني قريضة، والنضير، وبني قينقاع، ويهود خيبر، فإن قلت: فما الذي عطف عليه هذا الخبر؟ قلت: جملة الشرط والجزاء، كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون، فإن قلت فما معنى التراخي في (ثم)؟ قلت: التراخي في المرتبة؛ لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار))[١].

وبهذا القطع بين الرفع والجزم يكشف لنا ﷻ علمه وكمال إحاطته بأحوال هؤلاء اليهود الذين لا يقف عدم نصرتهم على وقت التولي فحسب؛ إذ لو عطف على الجزم لحدد عدم النصر بتولي الأدبار فقط، لكن الله ﷻ أتى بالرفع هنا؛ ليتناسب مع الصفة الثابتة لدى اليهود التي عمّمها القرآن في جميع أحوالهم وهي الخذلان لهم في جميع أحوالهم، ولولا هذا الرفع لما أضافت الآية هذا المعنى الشامل الذي أطلعنا الله ﷻ عليه من خبر اليهود وحقيقتهم حين انقطع العطف عما قبله، ليخرج بذلك التعبير من ضيق الصفة إلى سعتها، ومن الحكم المؤقت إلى إثبات الصفة الدائمة لهم، وبهذا تظهر دلائل كمال علمه ﷻ وبيان حكمته في أن هؤلاء اليهود لن ينصروا عبر

(١) الكشاف، ١/ ٦٠٩، ٦١٠.

الأزمان، وعلى مر التاريخ.

- **دلائل الإيمان في بلاغة الإعجاز العلمي في أسرار الكون.**

مما يشير له القرآن كثيرًا بيان قدرته ﷻ في الكون وما فيه من مخلوقات أرضية وسماوية وبحرية، وما يدور في الفلك من كواكب ومجرات، وما تخرجه الأرض من ثمرات، وما ينزل من السماء من غيث وبركات، ففيها تتجلى قدرته ﷻ، ويستبين سبق علمه، وكمال إحاطته، وقوته التي لا تقهر، وجبروته الذي لا يرد ﷻ، يقول للشيء كن فيكون.

إن هذا الأمر ظاهر في كتابه، فلا تكاد تخلو آية من آياته إلا يظهر فيها شيء من تجليات وحدانيته ﷻ وكمال قدرته، بيد أننا هنا نحاول الكشف عن دلائل الإيمان في أسرار الكون من خلال الوجه البلاغي، فمن ذلك:

أولًا: قدرته ﷻ على الإحاطة بأطراف الكون وجمع المتقابلات

نجد القرآن يؤكد في كثير من مواضعه على قدرة الله ﷻ على جمع المتضادات، وأنها تحت ملكه وتصرفه، فنجد القرآن ممتلئًا بالحديث عن ملك الله ﷻ ما في الكون من المتقابلات والمتضادات، مثل: السموات والأرض، والليل والنهار، ومشارق الأرض ومغاربها، والبر والبحر، وما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما يعرج إلى السماء وما ينزل منها، وكذلك هو يحيي ويميت، وينفع ويضر، ويعطي ويمسك، ويشفي ويسقم، ويضحك ويبكي، ويخلق الزوجين من كل شيء، ويهب لمن يشاء الإناث، ويهب لمن يشاء الذكور، ويجعل من يشاء عقيمًا، إلى غيرها من مظاهر الخلق والتدبير الذي تعد ولا تحصى من أمره ﷻ ، إذ هو على كل شيء قدير.

وهنا نجد أن هذا التقابل يرد في أسلوبين من أساليب العربية التي تتجلى قدرته ﷻ وملكوته وتصرفاته من خلالها، وهما أسلوب المقابلة وأسلوب الطباق؛ ليكشف المتأمل من خلال هذا الطباق بين المفردتين أو المقابلة بين التركيبين قدرة الله ﷻ وعظيم إحاطته

بالمتناقضات التي تستحيل في صنع البشر وأفعالهم، وأن غيره قائم على الثنائية، ولا يمكن أن تعيش الخلق على هذه البسيطة إلا بالتزاوج المبني على الثنائية ليتقرر بعدها تفرده ﷻ بالوحدانية، وأنه ﷻ الواحد الأحد الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، فهو ﷻ ليس بحاجة إلى أحد من خلقه.

إن هذا الأسلوب التقابلي الذي جاء به القرآن عرف قدره الأنبياء في محاجتهم لأقوامهم، وفي دعوتهم إلى التوحيد وإثبات ربوبيته ﷻ وكمال أسمائه وصفاته، فهذا إبراهيم ﵇ يدرك أهمية التقابل في إثبات محاجته حين حاجه النمرود في ربه، يقول الله ﷻ :﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] «وهذا استدلال مسوق لإثبات الوحدانية لله ﷻوإبطال إلاهية غيره لانفراده بالإحياء والإماتة، وانفراده بخلق العوالم المشهودة للناس»[١]. فنلحظ هنا أن إبراهيم ﵇ جعل التقابل والتضاد هو أداة الاستدلال وبرهانيته من خلال إثبات أن الله ﷻ يحيي ويميت، وهنا أراد النمرود أن يحيل المعنى على ما يهواه من ضلالاته، فادعى امتلاك هذا الأمر، فقال: «أنا أَمُنُّ على من استحق القتل، وأقتلُ من لا يستحق القتل»[٢]، بيد أن إبراهيم ﵇ لم يناقشه في حجته الباهتة، فأراد أن يضيق عليه خناق التدبير، وأن يلزمه حجة مشاهدة لا يقدر عليها، وأن يُعجِّلَ إبهاتَه مع بيان حقارته بما هو أجلى من ذلك، وأن ينقل المحاج من الحجة الواقعة في الأنفس إلى الحجة الواقعة في الآفاق بأعظم كواكبها، وهي الشمس[٣]، فقال الله ﷻ حاكيًا قوله:

(١) التحرير والتنوير، ٣/ ٣١.

(٢) نظم الدرر، ٤/ ٥٠.

(٣) ينظر: المرجع السابق، ٤/ ٥١.

﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ فنلحظ أن إبراهيم عليه السلام انتقل من تضاد إلى تقابل آخر، ليبهت الكافر، ويقطع عليه حجته؛ وهذا مما يجعل أسلوب المطابقة والمقابلة من أنجح الأساليب في إثبات ألوهيته ﷻ وربوبيته وكمال قدرته وإحاطته.

ثانيًا: دلالة الإيمان في الألفاظ المنتخبة والتشبيهات المنتقاة لأسرار الكون.

في قوله ﷻ: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٧] ظل حديث المفسرين عن معنى هذه الآية منحصرًا في وصف الجزء الظاهر من الأرض، وكونه مثبتًا للأرض، قال ابن كثير: «أي: جعل لها أوتادًا أرساها بها وقررها حتى سكنت، ولم تضطرب»[١]، وقال القرطبي: «أي لتسكن ولا تتكفأ ولا تميل بأهلها»[٢]، بيد أن العلماء في العصر الحديث أثناء دراسة القشرة الأرضية اكتشفوا في السنوات الماضية أن كل جبل ما هو إلا وتد يثبت في الأرض في رحلة دورانها، وتبين أن للجبل كثافة تختلف عن الأرض من حوله، وأننا نرى من الجبل الجزء الظاهر فقط، أما معظم الجبال فتغرز في باطن الأرض للآلاف الأمتار، ولا نراها تمامًا كالوتد، معظمه في الأرض وجزء منه صغير منه يبرز فوقها، ولهذا جاء التشبيه المفرد للجبل بالوتد بجامع الرسوخ وجامع مستوى العمق فيهما، وأنه الأطول من الجزء الظاهر على وجه الأرض[٣]، وهذا الأمر الذي يكشفه التشبيه في الآية يدل على التعبير القرآني الذي يعبر عن الإعجاز العلمي وأسرار الكون في سياق قد لا يدركه المستمعون حين تنزل الوحي، ويبقى في علم الغيب حتى يأذن الله ﷻ لأحد من خلقه أن يكشف هذا السر، فيجد القارئ للقرآن أن القرآن أشار إلى هذه الحقيقة العلمية وقت نزول القرآن لكونها في مقام جنب الله ﷻ من الأمور التي لا تخفى عليه ﷻ فهو خالقها ومكونها ومدبرها، وما يجد الإنسان أمام هذا التشبيه إلا أن يستسلم لعظمة هذه القرآن الذي اكتسى

(١) تفسير القرآن العظيم، ١٤/ ٢٢٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٢٢/ ٧.

(٣) ينظر: الإعجاز العلمي في أسرار القرآن الكريم والسنة النبوية، محمد حسني يوسف، ١/ ١٦٨ و٢/ ١٠٥.

عظمته من عظمة قائله ﷻ.

ومثلما أن وظيفة الوتد هي التثبيت فتلك هي إحدى وظائف الجبل، حيث (ثبت بفحص الطبقات الأرضية الموجودة على يمين ويسار الجبل، أنها تختلف عن الجبل نفسه، فالجبل وتد مغروس في الأرض عبر طبقات متعددة، وفي أثناء الدوران لا تُزاح الطبقات عن بعضها بسبب أن وتداً هو الجبل يربطها جميعًا)[١].

وبهذا تتّضح الدقة في تشبيه الجبل بالوتد، حيث كشف هذا التشبيه عن وجوه شبهٍ بديعة بين الطرفين من حيث الشكل والوظيفة. فمن حيث الشكل ينغرز الجزء الأكبر من الوتد في الأرض، ويظهر طرفه البارز صغيراً، وكذلك هو شكل الجبل. ومن حيث الوظيفة يظهر دور الوتد في تثبيت الخيمة، وكذلك هو الجبل يقوم بتثبيت الأرض.

وبهذه الأمثلة المتنوعة يتبين أسرار الغيب وأسرار النفس البشرية، وأسرار الكون وغيرها، وما مر من آيات تبين من خلالها جماليات النظم القرآني، ويظهر للمتأمل مدى استيعاب البلاغة القرآنية لأوجه الإعجاز الأخرى التي يذكرها العلماء في سياق إعجاز المضامين، كما استبان للمتأمل أن وجه الإعجاز القرآني البياني الذي يقف عنده الباحثون وهو التحدي بأن يأتي العرب بمثله، هو أحد الأهداف التي جاء بها القرآن في نظمه، وليس الهدف الوحيد، إذ رأينا أن دلائل الإيمان بالله ﷻ وحده، وكمال علمه، وقدرته وإحاطته تتجلى من خلال النظم القرآني، وأن الدعوة إلى الإيمان بالله ﷻ ، أو زيادة التصديق لدى المؤمن ليست أهدافًا خاصة بالإعجاز العلمي الذي يتصل بالمضامين.

(١) رأيت الله، عبد الرحمن محمد العكاري، ص ٦٠.

الخاتمـــة

جاء هذا البحث في تمهيد عن أسباب نشأة البحث لدى العلماء، ودراسة وجوه الإعجاز القرآني، ومباحث متعددة شملت مفاهيم عنوان البحث وقضاياه، وتعريف المعجزة وشروطها، وما سبب نشأة السؤال البحثي، والقضايا التي ناقشها مؤلفو الإعجاز البلاغي في القرنين: الرابع والخامس، ومنزلة دلائل الإيمان بالله ﷻ وكماله في مباحث الإعجاز، والدراسة التطبيقية على دلائل الإيمان بالله ﷻ وكماله من خلال وجوه البلاغة، وخلص البحث إلى النتائج الآتية:

- أثبت البحث أن مؤلفي رسائل الإعجاز القرآني قصروا دراستهم على موضوع التحدي، وأن هذا الهدف الذي شغلهم هو استجابة للداعي الذاتي الإيماني الذي جعلهم يدافعون عن جناب القرآن ونظمه وبيانه وتماسكه أمام الملاحدة والطاعنين في القرآن.
- توصل البحث إلى أن التراكيب البلاغية والمفردات البيانية قادرة على تفسير دلائل الإيمان وبيانها، كما هو الحال مع المضامين في بيان إعجاز القرآن العلمي والغيبي وغيرها.
- أكد البحث أن هدف التحدي الذي شغل الباحثين في دراسات إعجاز القرآن لا ينفرد بالوجه البلاغي، بل إن البلاغة قادرة على استيعاب جميع أوجه الإعجاز القرآني مما يجعل الارتباط وثيقًا بين وجوه الإعجاز العلمي والغيبي والنفسي، وإعجاز القرآن البلاغي، فالصياغات البلاغية التي جاء عليها نظم القرآن قد دلّت على عددٍ من الكشوف العلمية الكبيرة التي كشفها العلم الحديث.
- أثبت البحث أن هذه الوجوه الإعجازية التي أبرزتها الآيات تجعلنا نكتشف الدقة اللغوية البالغة في النظم القرآني؛ إذ لكل حرف مكانه الدقيق، ولكل لفظ مكانه المقصود، وكل كلمة هي الأبلغ من بين مرادفاتها.
- أظهر البحث كمال قدرة الله ﷻ وأحاطته في كلمات القرآن، كما هو ﷻ له الكمال المطلق في عالم الأكوان، وأن أحد أسباب عجز البشر عن الإتيان بمثل القرآن هو مصدرية القرآن وكون

ألفاظه الدالة على معانيه لا يمكن أن يحيط بها العقل البشري.

- أظهر البحث مرونة الكلمة القرآنية واتساعها لاستيعاب المعنى المباشر الذي يفهمه الصحابة في عصر البعثة، والمعنى العلمي الذي كشفت عنه الدراسات الحديثة.

هذا، ويوصي الباحث أن يعكف الباحثون، ويوجهون جهدهم البحثي للنظر في آيات الإعجاز العلمي، وآيات الإعجاز الغيبي، وآيات الإعجاز التاريخي، وأسرار النفس البشرية، والقصص القرآني المعجز، ودراستها من خلال الجانب البلاغي، فهي مجال رحب للبحث، والتنقيب في الآيات، وإظهار الأسرار التي تكشف عن جمالية البيان العربي من جهة وجمالية المضمون من جهة، على أن يصدِّروا تلك الجماليات إلى الناس في مجامعهم؛ فيزداد إيمان المؤمن، وتكون سببًا في إسلام من شرح الله ﷻ صدره للإسلام، وإظهار توحيد الله ﷻ وربوبيته وأسمائه وصفاته، وبيان كمال علمه وقدرته وإحاطته.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المراجـــع

- القرآن الكريم.
- إبراهيم التركي، وصف القرآن بالمعجزة في التراث العربي، دار كنوز إشبيليا- الرياض، ط ١، ١٤٣٩هـ.

ابن تيمية،

- النبوات، ت: عبد العزيز الطويان، طبعة أضواء السلف- الرياض، ط ١، ١٤٢٠هـ.
- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر- تونس، ١٩٨٤م.
- ابن عطية الأندلسـي، المحرر الوجيز: تحقيق عبد السـلام عبد الشـافي محمد، دار الكتب العلمية- بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ.
- ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ت: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية.
- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ت: مصطفى السيد، محمد السيد، محمد العجماوي، علي أحمد عبد الباقي، حسن عباس قطب، طبعة مؤسسة قرطبة-مصر.
- ابن منظور: لسان العرب، طبعة دار إحياء التراث- بيروت، ط ٣.
- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة- السعودية.
- أبو حيان الأندلسـي، البحر المحيط في التفسـير، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية- بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ.
- الباقلاني، إعجاز القرآن، ت: أحمد صقر، طبعة دار المعارف- مصر.
- البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي- القاهرة، ١٤٠٤هـ.
- الجاحظ، رسائل الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ١٣٨٤هـ
- الجرجاني، التعريفات، ت: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة- القاهرة.
- الرازي مفاتيح الغيب، دار الفكر- بيروت، ط ١، ١٤٠١هـ.
- الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي- بيروت، ط ٩، ١٣٩٣هـ.

- الرماني، والخطابي، وعبد القاهر الجرجاني، ثلاث رسـائل في إعجاز القرآن، ت: محمد خلف الله أحمد، ود. محمد زغلول سلام، طبعة دار المعارف- مصر.
- الزمخشري، الكشاف، تعليق ودراسة عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان- الرياض، ط ١، ١٤١٨هـ.
- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ت: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي – بيروت، ٢٠١٢.
- عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، مكتبة وهبة- مصر، ط ٢، ١٤٢٨هـ.
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ت: محمود محمد شـاكر، طبعة دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ.
- عبدالرحمن محمد علي العكّاري، رأيت الله بإعجاز علمي في تنزيل سـماوي، دار الإرشـاد للنشـر، سـوريا حمص، ٢٠٠٦.
- عضد الدين الإيجي، المواقف، دار الجيل- بيروت.
- علي مهدي زيتون، الإعجاز القرآني وآلية التفكير النقدي عند العرب، طبعة دار الفارابي- بيروت، ط ١، ٢٠١١م.
- القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الفكر الطباعة، ١٤٠٩ هـ.
- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط ١، ١٤٢٧ه.
- محمد العمري، البلاغة العربية (أصولها وامتداداتها)، أفريقيا الشرق، المغرب، ط ٢، ٢٠١٠م.
- محمد حسني يوسف، الإعجاز العلمي في أسرار القرآن الكريم والسنة النبوية، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٦.
- محمد راتب النابلسي، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، دار المكتبي- دمشق، ط٢، ١٤٢٦هـ
- مساعد الطيار، الإعجاز العلمي إلى أين، دار ابن الجوزي- الرياض، ط ٢، ١٤٣٣هـ.
- مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، دار مسلم للنشر- الرياض، ط الثانية، ١٤١٦ه.

فهرس موضوعات البحث